

قصص

حسن نور



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦

نور، حسن
بيننا الوطن: قصص / حسن نور. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
١٢٤ ص ؛ ٢٠ سم.
تدمك ٤ ١٨٥ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ القصص العربية القصيرة
أ ـ العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٠٨٥/ ٢٠٠٦
I.S.B.N 977 - 419 - 185 - 4

ديوى ٨١٣,٠١

الإخراج الفنى :
ماجدة البنا
تصميم الغلاف: صبرى عبد الواحد

كلاكيت آخر مرة

كلاكيت آخر مرة

جرس الهاتف يرن فى إلحاح، لكنى عملت أذنًا من طين وأخرى من عجين، خوفًا من ضياع الفكرة التى بدأت فى كتابتها، لكن الرنين يلح.. يخترق طبلتى الأذنين.. جدار الرأس.. مستفز.. مرغمًا أرفع السماعة..

- نعم..؟

- الأستاذ...

- نعم..؟

- برنامج «....»، يهمنا نسجل مع حضرتك حلقة النهارده.

- برنامج وتسجيل.. لا لا.. معلهش.. اعذرنى.. ما عنديش وقت.

- نعم..؟ حضرتك أول واحد من الكتاب يرفض يسجل معانا، دا كل الكتاب بيتلهفوا علشان يطلعوا فى التليفزيون.

- ماتقولش كلهم، وأنا أول من يرفض التسجيل يا سيدى.

- ولو قلت لك إن المخرج والمذيع والمعد يهمهم جدًا يسجلوا مع سعادتك..؟

- اشمعنى..؟

- آ.. يمكن لأنك كاتب مهم، ويهم عدد كبير من المشاهدين يسمعوا آراءك.

(يا ابن الكلب يا أفاق..)

- هاه يا أفندم.. قلت إيه..؟ أرجوك توافق.

- بشرط.

- شروطك أوامر يا أفندم.. اتفضل اشرط زى ما انت عاوز.

(منافق.. لزج.. أف .)

- أرفض المقاطعة وأنا باتكلم، ثانيًا أرفض حذف..

قال مقاطعًا: حذف إيه يا أفندم..؟ دا الحديث حيتذاع على الهوا مباشرة.

- يبقى اتفقنا.

أسرعت إلى الورق، فقد توهجت فكرة جديدة فى رأسى.. نحيت ما كتبته جانبًا، التقطت جهاز التسجيل وأسرعت إلى الطريق.. سألتقى ببعض الأفراد من الجماهير أسجل معهم.. انقل أفكارهم طازجة إلى المشاهدين.. توكلت على الله.. لأذهب إلى كل الأحياء، سأختار عينات عشوائية تمثل المجتمع، أما الأسئلة

فسأحاول أن تشمل ما يشكل أفكار الناس، وأحوالهم وآراءهم فى إعلانات التليفزيون، والانتخابات والحريات والقوانين.. الأسعار والخصخصة والـ... ها هو أحد الشباب.. يبدو أنه من الطبقة الوسطى.. أقترب منه فى حذر، أخفى جهاز التسجيل حتى لا أثير شكوكه.

ـ مساء الخير.. ممكن ندردش مع بعض شوية..؟

دون تردد، ودون أن تظهر على وجهه أمارات الدهشة أو حتى علامة استفهام واحدة أومأ بالإيجاب وكأن الأمر لا يعنيه..

ـ حضرتك بتشاهد إعلانات التليفزيون..؟

قال متحمسًا وقد اتسعت حدقتا عينيه: طبعًا.

ـ طيب أى إعلان إلتصق فى ذهنك أكثر من غيره؟

ـ أنت عاوز الصراحة.. أنا باتفرج على الإعلانات علشان أشوف البنات الحلوة إللى عاملين زى لهطة القشطة.. المارون جلاسيه.. لا تقوللى ڤينوس ولا نفرتيتى ولا حتى أميرة الشاطر حسن إللى خطفها على حصانه الأبيض.. أنا ما يهمنيش الإعلان.. أنا تهمنى الأجسام الملعلطة وشفايف الفراولة، والحركات إللى تهبل، ونظرات عينيهم إللى بتقول للواحد تعالى.. أنا أهو.. أنا عاوز أعرف.. منين البنات دى..؟ دول بيثيروا فىّ كل الغرائز الجنسية، لدرجة إنى باتصور نفسى معاهم فى كل الأوضاع المختلفة.. طيب أعمل إيه آهو مجرد تنفيس.. تعرف حضرتك أنا عمرى كام دلوقت..؟! اتنين

وثلاثين سنة، متخرج من عشر سنين، ولغاية دلوقت ماشتغلتش. كل يوم ألف على شغل.. وكل يوم كرامتى بتهدر، لكن بادور أعمل إيه..؟! وكل شهر أترازل على أبويا عشان يشترى لى جزمة بدل إللى اتبهدلت..

تصور بقى إن كل الخريجين إللى الدولة بتصرف عليهم ربع ميزانية التعليم سنويًا سايباهم يصوعوا فى الشوارع، وإللى بترضى عنهم تصرف لهم عربيات سوزوكى عشان يبيعوا فيها عيش أو خضار وفاكهة، والباقى بيلف على القهاوى والمحلات بأحزمة وولاعات ومحافظ، والله حاجة تحزن إننا مش عارفين نستثمر الكفاءات البشرية إللى كانت سبب تقدم النمور الصفر فى كل المجالات.

ترك على وجهى علامات استفهام كبيرة قبل أن يستدير منصرفًا وهو يودعنى قائلا.. سلام.

ها هو شخص آخر مقبل نحوى.

- لو سمحت.. ممكن نتكلم مع بعض شوية..؟

- اتفضل.

(سبحان الله.. ما هذه اللامبالاة، كل واحد يوافق أن يتحدث مع شخص لا يعرفه، وبدون أن يبدى قلقًا أو حتى توجسًا، وكأن الأمر أكثر من عادى.. شىء غريب حقيقة).

- إيه رأيك فى السياسة الاقتصادية..؟

- هل هناك سياسة اقتصادية من أساسه..؟ هل من السياسة الاقتصادية تعويم الجنيه فى وقت غير ملائم..؟ أم أنك تقصد بهذه السياسة ترسيخ عادة الاستهلاك العشوائى لدى الشعب بما لا يتناسب مع دخله..؟

(آثرت أن أتركه يتكلم)

إحنا ما عندناش لا سياسة اقتصادية ولا خطة ولا حاجة.. شوف حضرتك إعلانات التليفزيون واقرا إعلانات الصحف وأنت تتأكد من كلامى.. مش حتلاقى غير الإعلانات الاستفزازية.. جهاز لإزالة السمنة، وأفخم أنواع السيارات، وعطور وبارفانات وشقق سوبر لوكس فى مدن لم نرها ولا نحلم بها، وشاليهات وڤلل وقصور، وكله كوم واللى بيتصرف على المحمول كوم.. طيب وبعدين؟ إحنا عارفين العلاج، وكلنا عارفين العلاج، لكن الظاهر إن الحكومة هى الوحيدة اللى مش عارفاه، واللا ماكانتش باعت مصانع القطاع العام وأهملت صناعات الغزل والنسيج وزراعة القطن طويل التيلة، وتشجيع إقامة المصانع اللى تستوعب الأيدى العاملة، مش الاستثمار فى محلات الهامبورجر والبتزا اللى ملت البلد.. لا والحاجة اللى حتجننى إن الحكومة بتبيع عقاراتها ومصانعها بيع نهائى للأجانب.. طيب ليه مايكونش لعدة سنوات.. يعنى تبيع حق الانتفاع زى أعتى الدول الرأسمالية..؟! تعرف يا أستاذ أنا حاطط إيدى على قلبى.. خايف على البلد من سيطرة الأجانب.. خايف ترجع الامتيازات الأجنبية بعد ما غرقوا البلد فى الديون.. خايف

من سـيطرة رأس المال على الحكم، وآدى أنت شـايف آهو بدأوا يزحفوا على البرلمان والوزارات

قول الكلام ده.. زيمو أو انشره واكتب إسمى.. أنا مش خايف.. اسمى محمد المصرى.. سلامو عليكم.

كنت مهتاجًا.. مملوءًا بالفرح، فزعقت أرد عليه السلام.. ألف سلامة يا أبو حميد، وما كدت أخطو بعض خطوات حتى التقطتها عيناى.. شابة صغيرة فى عمر الزهور.

لو سمحت يا آنسة.

نظرتنى مرتابة، فبسطت يدى نحوها بجهاز التسجيل قائلاً: ممكن أسجل حديث مع حضرتك..؟

انفرجت أساريرها وظهرت بوادر ابتسام على شفتيها.

- اسمك..؟

- ريهام أو مبروكة أو حتى أم السعد تفرق إيه..؟

- طالبة..؟

- محامية.

- جميل.. نتكلم إذن فى القانون.. ياريت نبدأ بتعريف القانون كمدخل للموضوع اللى حنتكلم فيه.

نظرتنى مليًا قبل أن تقول متهكمة: القانون مجموعة من القواعد تحمى البعض من المساءلة.

- والدستور

- المفروض إنه بيبين نظام الحكم فى المجتمع، لكن معظم بنوده تحتاج لإعادة نظر، خصوصًا اللى من شأنها ترسيخ الديمقراطية.

- والنظام الجمهورى

- إسأل معاوية بن أبى سفيان لأنه ضليع قوى فى الموضوع ده.

- والقوانين الاستثنائية..؟

- كويسة، وضرورية، على افتراض إن جميع أفراد الشعب من المشاغبين، ويجب الحد أو منع كل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يعبر عن نفسه سواء بالكتابة أو بالفعل.

- والشعب؟

- مافيش أحسن من كده.. تمام قوى.. حلو وهادى ومتخاذل ومتهاون ونايم فى العسل.. بيشخر، والظاهر كده إنه خلص على كده..

- والمجلس..؟

- هو فين من كل اللى بيحصل فى البلد..؟

- والديمقراطية

كركعت ضاحكة وهى تتساءل.. مالها..؟

ويبدو أنها اكتفت بهذا القدر من الحديث فتركتنى دون استئذان.

لمحت أتوبيسًا آتيًا من بعيد.. حاذاني.. قفزت إليه.. انحشرت بين الأجساد الملتحمة، خنقتني رائحة العرق الزاعق، ودخان اللفائف، فآثرت أن أغادره عند أول محطة يقف عليها.

– وأما أنت حتنزل بعد محطة واحدة، بتركب ليه من أصله..؟

– وهي دي طريقة ركوب بني آدمين..؟

– آه والله.. ليك حق.. دا احنا اتهاونا ف. حاجات كتير.

ياااه.. كأننا في يوم الحشر.. ماكل هؤلاء.. وإلى أين هم ذاهبون..؟ المهم.. لأختر منهم واحدًا.. هاهو.. شاب في حوالي الثلاثين.. مشوش الملامح، شاحب الوجه، زائغ العينين.. أقترب منه، أحاذيه.

ـ لو سمحت.

نظرني خائفًا.. يسألني مرتعبًا: أنا..؟

ـ أيوه.. إنت.

ـ أنا ماشي ف. حالي.. ماعملتش حاجة والله العظيم.

ـ حاجة إيه ياعم، دا مجرد سؤال وتروح لحالك.

ـ آآآآ.. جالك الموت يا تارك الصلاة.. ماهم كلهم بيقولوا كده.. ربع ساعة وتروح لحالك.. كلمتين و ... آآآ.. يبقى أنت منهم.. أنا لا عندي كلمة ولا كلمتين ولا حاروح معاك ولا...

ـ لا لا.. استنى..أنت قلت منهم.. من مين..؟

- من اللى بياخدوا الواحد منا ويكملوا بيه العدد، ويلففوه البلد كعب داير.

- لا ياعم.. دا أنا حاكلمك هنا.. مش حنروح مطرح، واعتبرنى أخوك بتفضفض معاه، وإذا كنت مش عاوز تفضفض بلاش.. أنت حر.

وتظاهرت بالانصراف، فقال آسفًا..

لا لا.. إذا كان الأمر كده فماعنديش مانع.. اتفضل.. اسأل.

- جميل.. انت بتشتغل إيه..؟

- ليه بقى الإحراج ده بقى؟

- ما احنا قلنا ده مجرد كلام.. يعنى دردشة، وصدقنى مش حاأقوله على لسانك.

- جَطاط.

- نعم..؟!!!

- حرامى.. الأول اشتغلت نشال، ولما ركاب الأتوبيسات بقم كلهم من الموظفين حولت نشاطى ع. الملاكى.. العربيات كترت قوى.. خصوصًا العربيات «الهاى لايف».. أطفش الباب وألقط المسجل أو الشنطة السامسونيت أو الموبايل أو أى حاجة يكون صاحبها سايبها فيها.

- طيب ليه..؟

ـ طب قوللى أعمل إيه.. يرضيك اقعد عاطل عشر سنين بعد الدبلوم وأنا أكبر اخواتى، منهم ثلاث بنات.

ـ طب ليه قعدت عاطل بعد الدبلوم..؟

ـ دا أنا دخلت صنايع مع إن مجموعى يدخلنى ثانوى، لكن أنا قلت لنفسى أدخل صنايع لما سمعت واحد من المسئولين فى التليفزيون بيقول إحنا محتاجين للفنيين عشان نعمل بيهم النهضة الصناعية، لكن اتضح أنهم لا عاوزين فنيين ولا عندهم صناعة.

ـ يعنى لو لقيت لك شغلانة شريفة تشتغل.

انكب على يدى يريد أن يقبلها وهو يقول: دلوقت قبل بكره.. دا جميل مش ممكن حنساهولك أبدًا..

ـ خد.. كارتى آهو.. اتصل بيا.

وما كدت ابتعد عنه قليلا حتى أطل علىّ بملامح وجهه الحادة.. نفس الوجه المنحوت على جدران معابدنا المنتشرة هناك بالقرب من نيلنا الأسمر الآسر.. العينان لامعتان ذكيتان، والأنف مستقيم، والشفتان حادتان والرأس مستطيلة فى اعتدال.

اقتربت منه، لم أكد أنطق باسمى، مقدمًا له نفسى، حتى انطلق لسانه قائلاً: أعرفك من سنوات طويلة.

سكنتنى الطمأنينة، فسألته: إيه رأيك فى الإنسان..؟

ـ إنسان..؟!

-أخويا وأخوك، أبويا وأبوك.

تنهد من أعماقه وهو يحرك رأسه ببطء شديد.. آآآه.. مسكين.. ضايع.. كل الظروف ضده.. والكل اشترك ف قتله، وهو اللى سن السكين..

- إزاى..؟!

- ارجع لورا .. لورا قوى.. لأيام الفراعنة، لما شغلوه بالسخرة فى نقل الأحجار الضخمة لمسافات طويلة، لبناء مقابر للفراعنة.. سكت ورضى، ومن ساعتها وهما بيجرجروه، ويسوطوا ضهره لما يحسوا إنه تراخى، ولما كان يجأر بالآهه يجيه صوت من جواه: معلهش.. الصبر طيب.. طيب لأمتى..؟ لـ بناء القناطر لـ حفر القناة.. الخزانات.. وهو بيشق الترع، وهم بيجبوا الضرائب.. لغاية امتى..؟ الظاهر لقيام الساعة.. عملوا فيه البدع ومع ذلك صم بكم عمى فهم خانعون. المهم إنه يفضل كده.. يشغلوه لغاية ما يقع، يروَّح مهدود، يتخمد ينام، يشخر، مايصحاش للصبح.. طيب زمن السُخرة خلص.. يسيبوه..؟ لا.. لازم يغيبوه عشان مايعملهمش قلق.. قلق.. غلوا أسعار كل السلع وربطوه فى ساقية الرشوة والسرقة والغش والتدليس وأى حاجة تجيب له قرش، وبعدين سلطوا عليه التليفزيون.. ايشى مسلسلات هايفة وأغانى واقعة وماتشات كوره، وايشى رقص وتنطيط وعرى وإعلانات تنقط، تموت الناس ناقصة عمر، وكله كوم وتسطيح الوعى والتعتيم كوم، وده مستهدف بدليل إن كل البرامج الجادة بيلفوها، ومع ذلك تلاقى

الناس مربوطة قدام الجهاز تقول بجنازير، بحبال، وتكلمه تلاقيه تايه، مساكين.. بقم مسخ مشوهة، وتقول للواحد فيهم اصحى.. انطق.. احتج، يقول لك وأنا مالى، هو أنا اللى حعدل الكون، ياعم أنا ماشى جنب الحيط زى ما أمى قالت لى، وبعدت عن الشر وغنيت له، وربطت الحمار مطرح ما قال صاحبه، وقلت له يا عمى.. اللى اتجوز أمى..، ووطيت البصلة عشان الريح تعدى..

تسأله.. ليه كده..؟ مش انت مواطن، ولك حقوق، يقولك بأمارة إيه..؟

شُفت بقى عملوا فيه إيه..؟ برمجوه.. بقى «روبوت»، لدرجة إنه مابقاش ينطق غير بـ صح ومعقول وأكيد وبالطبع.. و تقول له.. البلد بيهددها الإرهاب وضرورى من قانون الطوارىء يقولك صح.

● الأحزاب انتهازية والبلد فى مرحلة بناء، وكفاية حزب واحد يقولك معقول.

● البلد فى حالة حرب ولا يعلو صوت فوق صوت البدنجان يقولك طبعًا.

● البلد بتمر بحالة اقتصادية صعبة، ومطلوب ربط الأحزمة يقولك أكيد.

● الرأسمالية والإقطاع نهبوا البلد ولابد من التأميم يقولك جميل.

● القطاع العام فشل وأهدر الموارد المتاحة ولابد من إلغائه والحل فى الخصخصة يقولك عين العقل.

أقاطعه متسائلاً: يعنى كلهم بقم إمعه..؟

قال: الخوف.. زرعوه ف. قلوبهم، مش فاكر زوار الفجر، ومذبحة الإخوان واعتقال الشيوعيين، وبعدين المثقفين، والمفرمه، وأنا مش حا ارحم إللى حيقع فى ايدى..؟

سألته: والعمل..؟

قال: مافيش غير الصحيان.. الفوقان.. لازم يتكلموا.. يرفضوا.. ماينتظروش منة من حد.. ماحدش بيدى حاجة.. لازم يقتنعوا إن دى بلادهم.. بيتهم إللى محدش حيحميه غيرهم.

غمرتنى السعادة وأنا أنسل مبتعدًا، أدس جهاز التسجيل فى جيبى، مشيرًا إلى سيارة أجره.. أتعجل سائقها.. أتعجل اللحظة التى سأقف فيها أمام عدسات التصوير لأمزج سعادة المشاهدين بأحزانهم، فربما تحدث الصدمة فتعقبها الصحوة المنتظرة من أمد بعيد.

والعربة تسير

و.. العربة تسير

التحمت كل الأشياء ببعضها.. الحر شديد والرطوبة تزهق الأرواح.. نزت المسام العرق.. تدحرجت خيوطه من الأقفية إلى بقية الأجساد.. بللها فالتصقت بها الملابس الداخلية.. رائحة العرق الفالتة من تحت الآباط تنتشر فى سماء العربة زاعقة، مكتومة.

زعق السائق: ادخلوا جوه خلونى أشوف المراية.. كقرد عجوز فر من جبلاية القرود اعتلى المحصل ظهور المقاعد، يقفز من أحدها للآخر وهو يتصفح الوجوه.. يجعر: تذاكر.. تذاكر.

صرخت سيدة حامل فى ساعتها الأخيرة.. يووووه.. انتفخت عروق رقبتها وغطى العرق وجهها وكفيها وكل جسدها.. اعترى الركاب الخوف عليها.. زعقوا مضطربين: افتحوا الشبابيك.. حرام.. هاتوا لها شوية هوا.

تخلى أحد الجالسين عن مكانه.. أجلسوها.

- مددى ياختى.

قالتها المرأة البدينة التى شقت طريقها إليها، قفزت المرأة الصغيرة التى كانت تجلس بجوارها واقفة.. تمددت على طول المقعد..

يوووووه..

يتمطى صراخها وهى تطرح نصفها الأعلى على باقى المقعد..

- سلامتك ياختى.. ربنا ينتعك بالسلامة.

- حالا ياختى تولدى.

- قُطع الخلف وسنينه.

أبعدت المرأة البدينة بين ساقيها وجلست بينهما.

- إللى معاه ملاية واللا فوطة يجيبها.

- وسعوا شوية، خللوا الهوا يخش لها.

اختلطت كل الأشياء ببعضها.. انتشرت رائحة خانقة، مكتومة.. امتزجت بدخان اللفائف وخلوف أفواه نتنها الجوع.

- عينيك منك له وخللوا عندكو شوية من الأحمر.

- منين يجيبوه..؟

تداكر.. تذاكر

على محطاتها تقف.. ينزل اثنان ويصعد خمسة.. ثلاثة ويصعد سبعة.. تنطلق.. تقف.

أحس راكب بيد تعبث فى جيبه، حاول أن يقبض عليها .. يمسك بها، لكنها انفلتت بسرعة لتزوغ منها .. تحسس نقوده فأحس ببعض الراحة لما عثر عليها قابعة مكانها، تلصصت عيناه فيمن حوله، باحثة عنه، اضطرب للحظة، بلله العرق.. أحس بشعر رأسه يقف لما رأى الواقف بجواره ملتصقًا بامرأة.. يلهث ككلب وعيناه غائمتان.. برقت عيناه.. سال لعابه.. أزاحه فانزاح.. أخذ مكانه، فتخلت أصابعه عن نقوده.

تمطى صراخ المرأة: يووووه.

- أيوه ياختى احزقى.. ساعدى نفسك.. خللى الطلق ييجى.

جعر المحصل معلنًا عن وجوده.. تذاكر.

قبل أن تغيم عيناه ارتجف.

باكو المناديل المعطرة بربع جنيه.. محفظة بلاستيك للبطاقة بربع جنيه.. يزعق ملتاعًا وأصابعه تفتش جيوبه.. فلوسى.. فلوسى يا حرامية.. ثم هجم على أحد الركاب.. غرس أظافره فى عنقه.. هات فلوسى يا حرامى يا ابن الكلب..

قبل أن تزهق روحه استل مديته، بسرعة غرس نصلها فى بطنه.. سقط.. انبثق الدم حارًا، غزيرًا.. صرخ وقد ضاعت من عينيه المرائى.. آآآخ.

أطلت رأس الوليد.. خرجت من مكمنها، فانسل الجسد هشًا، طريًا.

حاول البعض وقف النزيف من الجسد الساجى على أرضية العربة.. سألت فتاة صغيرة لغمطت شفتيها بلون أحمر قان وهى تطل على بقع دم فى ذيل فستانها: هو الدم بيطلع فى الغسيل..؟

لما خرج من مكمنه الضيق ملأ الدنيا صراخًا.. وااء.. واااء.

قالت واحدة وهى تجفف وجه الوالده: اقطعوا له الخلاص.

زعق راكب حاول ألا ينظر للجثة الساجية على أرضية العربة: إكرام الميت دفنه يا ناس.

سألت المرأة البدينة وهى تحتضن الوليد: حتسموه إيه..؟

أجاب راكب ساخرًا: أتوبيس.

كركع البعض ضاحكًا.. هأهأها... هاى.

قال آخر متأففًا: على القرافة يا أسطى.

اغتاظ السائق من صيغة الأمر المتعالية.. أبطل المحرك.. زعق غاضبًا:

أنا ماباخدش أوامر من حد.

- حرام عليك يا أسطى.. خللى عندك مروة.

قالت إمرأة ناهد، حلوة الوجه: معلهش يا أسطى.. اطلع عشان خاطرى.

انغرست عيناه فى النهر المحشور بين نهديها ثم قال متنهدًا عشان خاطرك إنت بس يا جميل.

- مالك يا عم.. فضفض معانا بدل ما تروح فيها.

نظره مليًا قبل أن تتفرج شفتاه قائلاً: تصور شهر كامل وأنا دايخ بين المصالح، طالبين منى شهادات إدارية بأنى مصرى، وإنى على قيد الحياة وصورتين من البطاقة.. تصور..؟! طيب ليه كل ده.. ماتخدوا حق الدمغات.. خدوا اللى تاخدوه بس بلاش الدوخة دى.. لكن إزاى ما يدوخوش الواحد فينا السبع دوخات..؟!

ضحك الآخر وقال ساخرًا، والأدهى والأمر أنهم أنشأوا إدارة جديدة اسمها إدارة خدمة المواطنين.

زعق أحدهم قلقًا: المحطة الجاية يا أسطى.

- تذاكر.. تذاكر.

- ولاعة يابانى بنص جنيه.. خمس أقلام بنص جنيه.. خمسة متر أستك بربع جنيه.

ولاعة إيه وأمواس إيه يا عم.. إحنا دلوقت بنشتغل فى التقيل.. فى المليارات.. بنبيع مصانع وفنادق وشركات.

أكمل آخر.. ونسحب مليارات من البنوك ونفلسع، ثم كركع ضاحكًا وهو يوصى الآخرين قائلاً: والنبى تخلوا بالكو م. الهرم وأبو الهول.

أضاف ثالث : والنيل.

فأجابه قائلاً: لا.. ما هو النيل بياخدوا منه أجزاء يعملوها مراسى، وكله بتمنه.

قال راكب وقد اكتسى وجهه بالدهشة: يا سلام.

فأجابه بسرعة قائلاً: وحياتك، وكله بتمنه.

- ياعم انت بتقول إيه، فال الله ولا فالك.

- خليكوا انتو نايمين فى العسل وقولوا فال وخال.

أبطل السائق محرك العربة، ثم زعق قائلاً: ياللا يا اخوانا.. ياللا يا حضرات.. اتكلوا على الله.. شوفوا لكم عربية تانية.

- ليه يا عم.. حصل إيه؟

- العربية عطلت..

- عطلت إزاى، الموتور كان شغال آخر حلاوة..؟

- تلاقيه وراه مشوار واللا حاجة.

- العملية بقت فوضى، وكل واحد بيعمل إللى هوه عاوزه.

فاجأه السائق بلكمة قوية أوقعته على أرض العربة.. تكوم جسده بجوار الجسد الساجى.. أطل الذعر من أعين الركاب.. تدحرجت أقدامهم على سلم العربة.

تمتم أحدهم وهو يتلفت حوله خائفًا: لازم نشجب الحادث، ونشتكى السواق للمسئولين.

سألوه محتجين: مسئولين..؟!

تدارك قائلاً: قصدى لمجلس الأمن.

نظروه شذرًا، ثم تفرقوا متأبطين غيظهم.

زعق الرجل مفتاظًا: يا ولاد الكلب.

ثم استدار وسـار عدة خطوات ليجد مطارق سـؤال صعب تدق رأسه:

طب وبعدين.. إيه الحل..؟!!

الكلاب ينتشرون فى المدينة

الكلاب ينتشرون فى المدينة

آثرت البقاء تحت الأغطية لبضع ساعة أخرى، لأستمته بالدفء، متمترسًا تحتها من برد الشتاء القارس.. حَشيةُ مرتبتى من قش خشن، الفته من طول رقادى عليه، حتى يُخال إلىَّ أن النوم سيجافينى لو قُدر لى ورقدت يومًا على فراش ناعم.. أما حجرتى فنصفها الأسفل ابتلعتها الأرض، فاستحالت إلى مقبرة أكلت الرطوبة جدرانها. وتشبع به هواؤها، فأعطب رئتى وعظامى، ولأنها ساخت تحت الأرض فالعتمة تفترشها طوال النهار، عدا سويعة تتسرب خلالها بعض أشعة الشمس إليها مع استحياء، فأتدحرج إليها فرحًا، وما أكاد أستقر فوقها حتى تنسحب هاربة قبل أن تصيبها رطوبة الحجرة فى مقتل، ولما تشبعت عظامى بالرطوبة اخشوشنت، فباتت حركتى شديدة البطء، وسرت أقضى يومى إما راقدًا أو قاعدًا، مسندًا ظهرى إلى الجدار الملاصق للنافذة الغاطس نصفها تحت الأرض، والمسيجة بأسياخ الحديد.. أطل من بينها على الحارة فلا أرى إلا أقدام الناس وسيقانهم.. فى البداية لم أكن أعرف أصحابها، ثم صرت أربط بينها وبين أصواتهم، ولما

طال بى الأمر على رقادى صرت أعرفها بمجرد النظر إليها، فهذه أم إبراهيم صاحبة الأقدام الوَسخة المتشقق جلدها، الطويلة أظافرها، والتى لم يحتويها أبدًا مداس، وهذان قدما شعبان المكوجى، المندسان دائمًا فى شبشب بلاستيكى لا يمنع عنهما الغبار فضاعت معالمهما تحته، وهذان ساقا سعاد ابنة صاحبة المبنى.. ساقان بيضاوان عاجيان، تطفحان حمرة.. تجرى الدماء فيهما ويختلط ببياض بشرتها فيصيران عمودين من المرمر.

صارت هذه طريقتى فى التعرف على ناس الحارة، فما أن تقع عيناى على ساق أى منهم حتى أبادره بالسلام، والسؤال عن الأحوال.. فى البداية أبدوا اندهاشهم، ثم اعتادوه.

●●●

آآآه.. يبدو أن الرطوبة تسربت ألى الأربطة القطنية، فآلمت ظهرى وقيدت حركتى، فصرت أقضى يومى راقد على شقى الأيمن أو الأيسر.. لا يؤنسنى سوى صوت مذياع أو مسجل يتسرب إلى أذنى من بعيد، فيكسر حاجز العزلة الذى وجدتنى فيه.. إيه يا أبى.. أين أنت.. لماذا تركتنى وحيدًا..؟ ولماذا لم تعد تزورنى منذ أن حل الشتاء..؟ هل صرت تعانى من ضيق الوقت، أم من طول الانتظار وراء إشارات المرور، أم من قرف المواصلات وسماجة السائقين..؟ أم أن ما صار إليه حالى الذى ما عاد يسر عدو ولا حبيب يؤلمك فآثرت الابتعاد..؟

عمومًا أطمئنك، فقد نصحنى بعض جيرانى الطيبين بألا أهمل نفسى وأبحث عن طريقة للاستشفاء.

- أكيد فيه طريقة لعلاج حالتك.

- إيدى على كتفكم.

- دور واحنا معاك.

- طب والتكاليف..؟

- روح الكومسيون الطبى وقدم لهم طلب واشرح فيه حالتك وظروفك.

اشتريت عصا لأتوكأ عليها، وخرجت فى غبشة الصبح متحسسًا الطريق، مجرجرًا الخطو إلى محطة الأتوبيس.. دقات ساعة الجامعة المنبعثة من مذياع قريب تعلن السابعة.. أخذ البعض بيدى وأركبونى، أمروا ولدا يمرح الزغب الأصفر فوق شفتيه العليا أن يجلسنى مكانه، فقام يبرطم غاضبًا.

- بس كان المفروض يكون معاك حد يسندك.

- ربنا مع الجميع يا بنى.

- ونعم بالله.

قال شيخ معمر: ربنا ما يحوج حد لحد.

همس واحد لآخر: يقصد حد من أولاده.

قال الشيخ: أى أولاد..؟ اللى ربنا ما أرادش بيهم.. دا الحمد لله لولا قرشين المعاش كنت دلوقت مادد إيدى للناس وباشحت.. والله المعاش ده أحسن حاجة عملتها الثورة للناس.. عينى على شباب

اليومين دول.. مساكين.. السكينة سارقاهم.. عشر سنين بطاله بعد التخرج، وضياع تام بعد بلوغ سن المعاش.. ماحدش دلوقت من أصحاب الأعمال بيأمن على العاملين اللى عنده، وماعدش فيه نقابات تطالب بحقوق العمال، وهما مساكين.. مضطرين يقبلوا أى حاجة.. حيعملوا إيه.. لو رفضوا حيترموا فى الشوارع.

- أووه يا حاج.. قلبت علينا المواجع.

- أيوه يا أسطى.. الله يرضى عليك نزلنى المحطة الجاية.

(ما هذا.. شارع نظيف، وأرصفة لامعة، وخضرة يانعة تحف الأرصفة، ورجال شرطة موفوروا الصحة، يتناثرون بكثرة على الطوارين، بألبسة نظيفة وأزرار لامعة، وعلى الأكتاف «اسبليتات» زرقاء جديدة، كأنهم آتين من بلاد أخرى، أو هابطين إلينا من السماء، أو أن هذا الشارع بكل ما فيه جاءنا من غابر الأزمان لما كانت شوارعنا نظيفة ولامعة، محفوفة بأرصفة مخصصة للمشاه.

قال لى واحد لما رآنى أقلب عينى فى الشارع مندهشًا وهو يشير لمبنى على يمينى: دا مبنى رئاسة الوزاة، ودا مجلس الشعب، فانزاحت عن عينى الغُمة.

سألته: والكومسيون الطبى فين..؟

أشار إلى مبناه.

سرت إليه ولسانى يلهج بالحمد لله، إذ يبدو أن الأمور ستسير على ما يرام، ويا سلام لو أحصل على القرار اليوم حتى لا أكرر

هذا المشوار، وأذهب من صباح الغد إلى المستشفى.. لكن لم كل هذا اللف والدوران..؟ أذهب إلى الكومسيون وأقدم طلبًا، والطلب يعُرض على لجنة، واللجنة تطلب أشعة وتحاليل وتقارير طبية، ثم تُعقد مناظرة مع المريض، وبحث اجتماعى وشهادة فقر، ثم البحث عن واسطة أو معرفة أو تفتيح مخ، وإلا فتعال بكره أو بعد أسبوع، ثم يا عالم.. يا إما يصدر القرار أو يرفض الطلب من أساسه.

لم كل هذا العذاب.. لماذا لا يذهب كل مريض إلى المستشفى التابع لحيه الذى يسكنه مباشرة ويعالج فيه.. أليس هذا من حقه كمواطن خدم وطنه، ويسدد ما عليه من ضرائب، وأدى الخدمة العسكرية فى شبابه..؟

لكن.. يا ساتر يارب.. ما كل هذا الزحام أمام المبنى..؟ أين مدخله..؟ لابد أنه توارى وراء الأجساد المتلاحمة.. شيوخ وكهول وعجائز وشباب وتعاسة وأحزان وهموم تطل من الوجوه.. أمعقول هذا..؟! كيف سأتمكن من الدخول وسط هذا الخضم..؟ بل كيف أقدر على الوقوف بينهم..؟ يالطيف اللطف يارب.. لالا.. هذا مستحيل.. مستحيل.

إذن ما العمل..؟ لا أعتقد أننى سأتمكن من الدخول بأى حال من الأحوال، إذن لأجلس قليلاً على هذا السور قُبالة المبنى حتى أريح جسدى وساقىَّ قليلاً، وحبذا لو استطعت أن أسند ظهرى لجدار.

خد بإيدى يا ابنى.. قعدنى على السور ده.. أيوه.. هنا جنب الحيطة دى.. أيوه.. الله يبارك لك فى شبابك.

جلست.. غفوت.. تهلل وجهى بشرًا لما أبصرته مقبلاً نحوى.. جريت إليه وسألته فرحًا: إنت جيت يابا.. وليه الغيبة الطويلة دى..؟ عامل إيه، وأخبارك إيه..؟

قال: أنا كويس.. مبسوط.. عايش فى جنينه واسعااه، وهوا جميل، وجو نقى.. لا فى زحام ولا زعيق ولا خنقة مواصلات ولا حاجة من دى.. لكن الدور والباقى عليكم انتم.. مساكين حالكم لا يسر عدو ولا حبيب.. مش عارف جرى لكم إيه.. إيه الفوضى اللى انتم عايشين فيها دى، وراضيين بكده إزاى..؟!

سألته مندهشًا: وايش عرفك..؟!

قال: قلبى حاسس بيكم، واللى حسيته لقيته.. شفته بعينى، واتحققت منه، وحمدت ربنا على رحيلى المبكر عن دنياكم، بعد ما عشت فيها أجمل وأحلى الأيام، وماكنتش حا استحمل أعيش أحوالكم اللى انتو عايشينها، كل جيلنا ماكانش حيستحمل، عشان كده كان لازم نرحل.

سألته: والعمل يا أبويا..؟

قال: العمل فى ايديكم انتم.. انتم أصحاب القرار.

قلت: بنعمل

قاطعنى قائلا: ما تضحكوش على نفسكم.

قلت له: نورنى.

قال: اصحوا وصحوا الناس النايمة، وسيبكم من اللى بتكتبوه.. ما عادش حد بيقرا.

وتركنى ومضى، صرخت: انت سايبنى ورايح فين يا أبويا..؟

أبويا!!!! .. أبويا!!!!!

- إيه يا حاج.. مالك.. فيه إيه.. بتزعق كده ليه..؟!

انتبهت.. نظرته مليًا.. كانت عيناه شاخصتين نحوى، تطل منهما علامات استفهام كثيرة.

قلت له: شايف الشارع ده.. عشان تعديه لازم تحشد له عزمك كله.

كانت المركبات فى نهر الشارع متلاصقة.

نظرنى لثوان، ثم قال ساخرًا: آآآآه.. دا كان كابوس تقيل قوى يا حاج.

هززت رأسى ببطء وأنا أقول.. العملية عاوزه مجهود كبير قوى قوى، ثم قمت أجرجر خطوى بعد أن استقر رأيى على الرجوع إلى هنا ثانية بعد أن يوغل الليل لأقضيه أمام الباب، فإذا ما جاء النهار أكون أول الداخلين، لكن لا يمكننى العودة بالأتوبيس بعد أن تكسرت عظامى وتصدعت رأسى فى رحلة المجىء..؛

إذن لا مفر من التضحية بأجرة تاكسى.. مصروف يوم كامل الأمر لله.

تاكسى.. تاكسى..

وقفت أزعق فى نهر الطريق.. كلهم صنف واحد.. خنازير.. أنجاس..

تاكس.. الهـرم يابنى.. الهـرم ياباشـمـهندس.. الهـرم الله لا يسيأك..

(طيب الواحـد يعـمل إيه مع صنف الكلاب ده.. يمـسك فى خناقهم ويبهدل نفسه..؟ ساعة كاملة باحاول أوقف تاكس.. ساعة كاملة.. فلوسى فى جيبى ومش قادر آخد تاكس وأروح، تبقى دى عيشة..؟! لا ذوق ولا رحمة ولا..)

- رايح فين يا أبويا..؟

انشقت عنه الأرض، كما الجنى المتجسد من الدخان المتصاعد من القنديل.. أتلفت فألقاه واقفًا إلى جوارى مبتسمًا.. شاب بسم الله ما شاء الله كالفلق.. باب.. طول بعرض، والوجه أبيض مورد، وشنب آخر عظمه، ومظهره آخر شياكة.. بدله إيه.. وقميص إيه، وكرافته إيه..!!

- الهرم يابنى.

(طب ما أنا عارف.. هأ.. دا أنا واقف جنبك من أول ما ندهت على تاكس)

سألته: بتقول حاجة يابنى..؟

قـال: لا لا.. ولا حاجة.

ثم أضاف قائلاً: ما تشيلش هم.. حالا أوقف لك سواق يوصلك وجزمته فوق دماغه.

(يااااه.. دا باينه مهم قوى.. واحد من اللى واصلين فوق.. واحد من بتوع اليومين دول)

قال: تاكسجية كلاب، لا عندهم نظر ولا ذوق، ولا فى قلوبهم رحمة.

(لأ .. وباينه شهم وجدع)

أشار لأحدهم شاخطًا :اقف..

فوقف.

فتح الباب الخلفى وأخذ بيدى وأركبنى، ولم أكد أفتح فمى لأشكره حتى وجدته جالسًا بجوارى، آمرًا السائق.. شارع الهرم.

ـ أمرك ياباشا.

(إيه.. باشا.. لاا! .. دا كبير قوى)

نظرنى وابتسامة كبيرة تطل من تحت شاربه، وقبضة يده ممتدة نحوى، منتصبة الإبهام وهو يقول: شوف يا حاج.. دى ناس أجبن منها مافيش.. ما تجيش غير بالعين الحمرا .. أى والله. تعمد أن يُسمع السائق كلامه فأحسست بالخجل ولذت إلى الصمت، فأردف قائلاً: ماحدش دلوقت بقى عنده ذوق ولا أخلاق ولا رحمة، وعشان كده أنا سخرت نفسى لخدمة أمثالك.. أعمل إيه.. مضطر.. مااقدرش أشوف واحد كُباره، محترم زى حضرتك ومااسعدوش.

(يابن الأبالسة.. كل يوم تصطاد لك واحد وتركب معاه بلوشى؟)

– كتر خيرك يا سيدى.. لكن انت ساكن فين..؟

تجاهل سؤالى، واتجه بعينيه إلى جانب الطريق، ثم أمر السائق شاخطًا: هنا يا اسطى.

ونزل، وقبل أن ينطلق بى التاكسى أطل علىّ وقال مقهقهًا:

سلام يا جنتل.

أخرجت رأسى من نافذة العربة ونظرته بقرف، وبصقت بغيظ، ثم انطلق لسانى يسبه: ياولاد الكلب.

بيننا الوطن

بيننا الوطن

مللت الزحام وطول الانتظار وراء الطوابير الطويلة من المركبات التى تحتجزها إشارات المرور.. أكاد أختنق.. أجن.. أغلق زجاج سيارتى وأصرخ بأعلى صوتى.. أنفس ضيقى المكبوت.. آآآآآه. كل الطرق أطرتها المركبات.. لم تترك من نهر الطريق سوى شريط ضيق، مخنوق.. بالكاد يسمح لمرور مركبة واحدة ببطء وحذر شديدين.. حتى الميادين لم تسلم من الأمر.. تلتحم فيها المركبات الآتية إليه من كل الشوارع الفاغرة أفواهها عليها، وعساكر المرور مزروعين كنواطير.. معذورون.. ماذا يفعلون أمام هذا السيل الذى لا ينقطع من المركبات، وسائقون يخنقهم الزحام وتزهق أرواحهم الرطوبة والحرارة، وطرق ضاقت ولم تعد تستوعب هذا الكم الهائل من المركبات، ومسئولون لم تعد تُجدى قراراتهم بمنع استيرادها مع أباطرة السوق الذين يستخدمون كل حيلهم وألاعيبهم كى تظل جيوبهم متخمة.

كل الأماكن صارت مزدحمة.. النائية وغير النائية.. وسط البلد والضواحى، فلماذا لا يفكر المسئولون فى نقل العاصمة كما فعلت

البـرازيل والولايات المتحـدة بدلاً من التـرقـيع الغـيـر مـجـدى.. بناء كبارى علوية وأنفاق شوهت وجه العاصمة الذى كان جميلاً.

منذ سنوات ليست بعـيـدة كنت أذهب إلى عـملى مـاشـيًا.. كانت هناك أرصفة، وكانت الطرق واسعة.. هادئة، نظيفة، والأتوبيسات كانت منتظمة، تجىء فى مواعيدها، فلماذا انقلب الحال وصار استخدامها قطعة من العذاب؟.. انتظار ممل بالساعات.. زحام وتكدس وشتائم والتصاق أجساد وعبث بمؤخرات النساء.. زعيق وصراخ باعة يعلنون عن أمشاط ومشابك وأساتك ونفتالين وأمواس حلاقة وحتى الذرة المشوية، ودخان لفائف يلتف حول الرقاب ويتسرب إلى رئتيك، وشاب ملتح يعلن عن كتب أدعية وأخرى عن الجان وثالثة عن قراءة الطالع.. «وآدى كمان كتاب، وآدى كمان كتابين..»، وقبل أن يغادر العربة كان قد نفد ما معه من كتب.. والكمسارى يزعق فى الركاب ليدخلوا جوه، ويرصهم كقوالب طوب، وشتائمه تتساقط فوق رءوسهم، ولكنهم جعلوا آذانهم من طين وعجين، فما الفرق بينهم وبين الطوب..؟ فليرصهم كيف يشاء، أو يرمى بهم خارج الأتوبيس.. أبطل السائق المحرك أمام أحد المطاعم.. نزل الكمسارى وغاب داخله.. دقيقتان.. خمسة.. عشرة.. يتململ الركاب.. العرق ينز من المسام.. يشر فيكسو الوجوه ويشحن النفوس قرفًا وزهقًا، وقبل أن تنفجر الصدور يجئ الكمسارى حاملاً لفة كبيرة.. يتقرفص بجوار السائق.. يأكلان.. يدور المحرك.. خطوات قليلة وتقف المركبة أمام مقهى.. تجرأ راكب وقال: عاوزين نروح شغلنا يا أسطى..

وكأنه فتح على نفسه أبواب جهنم.

ما تروح يا سيدى مطرح ما تروح.. حد حايشك.

جاء الكمسارى بكوبين شاى.. وضعهما أمام السائق.. إيه الحكاية..؟

- قال البيه عاوز يروح شغله..

يا أخى ينعل أبوك لأبو شغلك.. أما صحيح ابن...

حيخوفنا ابن الـ... بشغله.

كأن أذنيه أصيبتا بالصمم، ولسانه بالشلل.. خرس وخرس معه كل الركاب، وأصيب الكل بالتوهان.

وما الحل..؟ سألت نفسى.. لابد أن أنجو بنفسى وأنتشلها من هذا اليم، وإلا صار جلدى سميكًا.

بع نصيبك فى بيت أبيك واشترى سيارة.. أى سيارة، وحمارتك العرجة أفضل من الأتوبيس الغلقة.

●●●

خُيل إلىّ أننى امتلكت ناصية الدنيا لما جلست وراء عجلة القيادة، أدرت المسجل فداعب أذنى صوت ليلى مراد الرائق.. الدنيا حلوه.. نغمتها حلوه.. إحنا إللى نطير ونغنيها..

ضغطت على دواسة البنزين.. سأصل طبعًا قبل موعدى.. وسأقرأ الجريدة وأنا أدخن سيجارتى الأولى.. سقطت من الكوبرى

إلى الميدان إلى الشارع.. أصبحت أمام مبنى الشركة، تدور عيناى فى محجريهما بين صفوف السيارات المتراصة بحذاء الرصيف علنى أجد «خُرم» إبره أحشر فيه سيارتى.. أبدًا.. ألف وأدور حول المبنى علنى أعثر على «خُن».. مستحيل، وهكذا.. خمس أو ست مرات دوران حول المبنى كثور الساقية دون جدوى، ولما دقت ساعة الميدان الثامنة والنصف أخذتها من قصيرها ورجعت من حيث أتيت.

وفى اليوم التالى وجدت نفسى وراء عجلة القيادة قبل شروق الشمس.. الحمد لله، ها هى ذى أماكن كثيرة.. أبطأت.. كسرت «الدركسيون» وقبل أن أدخل إحداها سمعت صوتًا منكرًا يصيح علىَّ من بعيد.. حاسب ياباشا.. دى أماكن محجوزة.

دسست فى يده جنيهًا بعد أن لطعت بسمة على وجهى وأنا أقول له: صباح الخير ياريس..

لم أكد أستدير حتى وجدته يهرول نحو سيارة فارهة وهو يرفع يده إلى جانب رأسه، هاتفًا بصوته الكريه.. أهلاً ياباشا.. مكانك محجوز يا أفندم.. اتفضل سعادتك.. اتفضل.. هات.. هات.. بااااس..

ما هذا..؟ من يكون هذا الـ باشا.. وما كل هذا النفاق..؟! أدرت نحوه رأسى فالتقطته عيناى.. «فايز غالب»..؟ نعم.. إنه هو.. كان زميلى فى العمل، ودفعتى فى التخرج.. كان أخيب زملاء الدفعة، لكن كانت له عينا صقر وحيل الثعالب.. ينقل إلى ورقة إجابته كل

ما كان يكتبه الجالس أمامه فى «البنش».. انتقلنا سويًا إلى قسم المراجعة بعد أول ترقية.

دائمًا ما أراه مهمومًا.. أسأله:

- إيه يا فايز.. أنت دائمًا هكذا شايل طاجن ستك؟

- العمر لن ينتظرنا يا صاحبى، ولو ادخرت راتبى كله لن يكفى، و.. أبى...

بسرعة ارتد إلى الوراء.. ألمحه منزويًا فى ركن الحوش.. عيناه ملأ بالدموع، ما أن نقترب منه حتى يروح يهنف ويستغرق فى البكاء.

نسأله: ماذا بك..؟

يقول: بطنى.. لم أذق شيئًا من أمس.

نناوله بعض طعامنا.. فى ثوان يزدرده.. نبحث عن دموعه فلا نجد لها أثرًا.

أسأله: معقول..؟

يتعلثم.. أصل.. أصـ

- هيا بنا نلعب.

سألنى هامسًا: لماذا تصر على إحراجه..؟

- هل تصدق أن أبويه يتركانه بدون طعام..؟

لما رآنى منصرفًا عنه سألنى: تفتكر الواحد منا يحتاج لكم سنة حتى يدخر مقدم الشقة وثمن الشبكة والأثاث..؟ ألا ترى أن الأمور باتت مستحيلة..؟

ثم ينفجر لاعنًا التعليم والشهادات والدنيا كلها، وعلى طريقة محجوب عبد الدايم يضرط بلسانه ثم يصرخ قائلاً: طظ.

أقول له: إذا كنت فى عجلة من أمرك فالثمن فتاة طيبة ترضى بشقة صغيرة وأثاث بسيط وتوكل على الله.

ينظرنى مليًا ثم يقول: لولا إنى أعرفك جيدًا لأتهمتك بالعبط والتخلف.

وذات يوم، على غير العادة لمحت وجهه منبسطًا، وبسمة تمرح على شفتيه، سألته مندهشًا: خيرًا..؟

قال: خلاص.. نفذنا.

قلت مندهشًا.. نعم..؟

قال: انت طبعًا أول المدعويين لحفل زفافى، فى الفندق الكبير المطل على النيل..

- ....

استطرد قائلاً: فى الـ «نايت كلَب» Night Club.

ابتسم موظف الاستقبال وهو يشير نحو المصعد وقال: الدور العاشر.

وجـدته جـالسًا بجـوارها.. تكبـره بسنوات.. «خَرج بيت» أو «Second Hand» كما يقولون، حاولت أن تخفى تجاعيد وجهها فبدت كبلياتشو..

– من هذه يا فايز..

– سيدة أعمال، تلعب بالملايين.

– ملايين..؟

– فى سمسرة العقارات، وفى العملة و..

– ولكنها...

– لو رأيت الشقة المطلة على نيل المعادى ستقول فيها شعرًا.

يروح ويغدو فى عدد من السيارات كأمير محدث نعمه، أما البدل والقمصان وأربطة العنق فلا عدد لها، صار من أشيك شباب الشركة، ولولا أن ساقيه انبعجتا وصارتا ترتعشان، وعيناه باتتا نقرتين لامعتين لكان من أجملهم.

– أهلا فايز.

– أهلا يا حبيبى.. ماذا فعلت مع هذه البلوه..؟

عملت بنصيحتك.

– أرأيت..؟ هذه هى لغة العصر.. إذا أردت أن تمشى أحوالك وتنجز أعمالك طبق ما فعلته مع هذا المنادى.. صدقنى.. مع أكبر راس فى البلد.. ادفع تتفتح لك كل الأبواب الموصدة..

أضفت ضاحكًا: والنوافذ أيضًا.

قال: ألا تصدقنى..؟

ولم ينتظر ردى، بل قال مستطردًا: غدا سأبرهن لك على هذا الكلام عمليًا.

سألته: ولماذا غدًا..؟

تلفت حوله، ثم قال هامسًا: سوف انتقل للوزارة.

قلت: لاشك إنك عبيط أو مجنون.. تترك الشركة إلى الوزارة.. تعمل فى الحكومة..؟!!

قال: هذه فرصة إن تركتها لن تواتينى ثانية.

(آه.. نسيت أنك النمس.. الانتهازى.. صائد الفرص، بل خالقها وقناصها)

سألته: أية فرصة تلك..؟

قال وهويحرك رأسه وعينيه لأعلى: وظيفة وكيل وزارة للشئون المالية.. اتفقنا على كل شىء بالأمس.

سألته: على طريقة المنادى..؟

قال: شاليه فى الساحل الشمالى

(ياولاد الكلاااب)

- شاليه..؟ فقط..؟

- أنا أعـرف أنك تلعننا فى سـرك، ولكن دعنى أقـول لك، إن القيم التى نشأت عليها صارت بالية، سقطت بالتقادم كالديون المعدومة، وأنصحك أن تضعها فى صرة وتربط عليها جيدًا وترميها فى أول صفيحة زبالة، أو فى البحر أيهما أقرب. ثم قال مستطردًا لما رآنى صامتًا، أحيط رأسى بكفى.

اسمع منى أقص عليك.. بالأمس ذهبت وزوجتى إلى مكان.. لم أر مثله من قبل.. شقة تزيد على الثلاثمائة مترًا.. أول مرة أرى شقة بهذه الأبهة وتلك الفخامة.. تصور شققًا بها حمامات سباحة، وسيارة تصل بك حتى باب الشقة، وأول مرة أيضًا تجمعنى جلسة برجال أعمال.. اتفاقات وصفقات تُعقد تحت أضواء خافتة ووسط سيدات أرى مثلهن لأول مرة.. وكئوس خمر ومزات وسط موسيقى هادئة، حالمة.. استيراد وتصدير.. بيع وشراء بالملايين.. موبايلات وفاكسات مع أسواق العالم.. الصفقة الواحدة تكسب ملايين.. جو يُذهب بالعقل، ألا ترى أننى كنت عبيطًا لما أضعت عمرى فى انتظار العلاوات السنوية والترقيات الوظيفية.. إيـ يـ يـه.. وفى النهاية اتصفصفت القعدة علينا وشخص ثالث لم أعرف عنه شيئًا غير أنه من الكبار أصحاب الكلمة.. اتفقنا على كل شيئ.

- ماشى، ولكن ما حكاية وكيل الوزارة التى حدثتنى عنها وأنت لم تكمل المدة البينية..؟

أجابنى متبرمًا: يبدو أنك لا تريد أن تفهم ولذلك ستظل هكذا.. محلك سر.. أو كل ثمان سنوات تحصل على درجة بالأقدمية.. المدة

البينية هذه تطبق على أمثالك، هناك قرارات فوقية، أما المدة البينية والكلية فلا مؤاخذة.. امسح بها....

ثم قال لما وجدنى صامتًا: اسمع يا صاحبى، سأقترح عليك اقتراحًا يؤكلك الشهد لو قبلته.. تستقيل من عملك وتفتح مكتب محاسبة، وأنت محاسب شاطر وتعرف أنواع الدفاتر خصوصًا التى ستُعرض على الجهات الرسمية.. لو قبلت سأجلب لك المستثمرين الكبار، وأنت وشطارتك.

•••

أحسست بالزهق.. كل شيء حولى يبعث على الملل.. انفلت إلى الخارج هربًا.. إلى أين..؟

فى الأيام الخالية كنت أتريض بالمشى.. ألف الشوارع.. والحوارى.. الأحياء القديمة.. عشقتها.. الحسين وخان الخليلى والنحاسين، الغورية والخيامية وتحت الربع.. باب النصر وباب الفتوح، والله على السير فى الكورنيش بحذاء النيل.. من كوبرى بديعة فشارع النيل، بعد أن تنكسر حدة الحر، وتهب النسمات الحلوة الرقيقة تداعب الوجوه.. أملأ عينى من النيل، مستمتعًا بالنظر إلى مويجاته وهى تجرى وراء بعضها فى شقاوة عفوية. لا يفصلنى عنها سوى سور قصير يمتد بطول شاطئه، وطوار مسفلت يتخلله أشجار كافور عتيقة، ومقاعد رخامية متباعدة.. أتمهل تارة وأسرع أخرى، وإذا ما أحسست بتعب جلست قليلاً.. وهكذا.. أراوح بين المشى والهرولة والقعود حتى تطل علىّ من بعيد مئذنة جامع

الإسماعيلى. يسقط قرص الشمس الأحمر القانى هنااااك عند التقاء حافتى السماء والنيل، تزفه غيوم رمادية حتى يغيب فى اليم، فتبدل المرائى أثوابها الزاهية بأخرى رمادية، ويمس القلوب إحساس بحزن شفيف، تجلوه كلمات الآذان المنبعثة من مكبر الصوت المثبت أعلى المئذنة.. تتناثر فى الفضاء، ثم تنسكب فى القلوب لتحل الراحة فيها.

الله أكبر الله أكبر.. اللااااه أكبر اللاااااه أكبر يااااه.. أيام.

أين أنت يا عواض الآن.. لماذا لم أعد أراك بعد أن كنا لا نفترق..؟ زاولنا سويًا هواية المشى.. جُبنا شوارع القاهرة القديمة وحواريها.. كنت تهرول إلى أول مسجد يصادفك لما تسمع صوت المؤذن ينطلق فى الفضاء.. تحثنى أن أجرى لنلحق الجماعة، لأسائل نفسى سؤالا ساذجًا: هل يستقيم ذلك مع الاهتمام بالأناقة والجرى وراء الموضة..؟

دائمًا كنت أراه متأنقًا، الوحيد من الشلة الذى كان يحرص على ربطة العنق.. كان يسكن مع أبويه فى بناية عالية تطل على النيل، وكان يرتاد المسارح والسينما والأندية الأرستقراطية، ويسمع الموسيقى، ويحفظ الكثير من أشعار شوقى وحافظ والمتنبى والبحترى وأمل دنقل وصلاح عبد الصبور، ويتحمس للثورة وللقومية العربية ومزارع لينين الجماعية وثورة الصين وهوتشى منه وانتصار فيتنام على أمريكا وثورات التحرير الأفريقية وأمريكا اللاتينية، يحب جيفارا وكاسترو وجومو كنياتا، ويقرأ لجوركى

وتوليستوى ويُعجب بجرأة يوسف إدريس، لكن ما كان يثير دهشتنا أنه كان يجاهر بآرائه غير مبال.

- إنت اشتراكى أم شيوعى أم..؟

- أنا أقدس الحرية، ومستعد أن أبذل روحى لإعلاء كلمة حق.

- لا تتهرب من السؤال وكن محدد الإجابة.

- يجب أن يعيش كل الناس على وجه الأرض فى أمان، وأن يتوفر للجميع الكرامة.

- ما الفرق بين ماو وناصر..؟

- ماو بنى الانسان أولا، هذا الإنسان هو الذى بنى الصين.. فعلا البناء ومازال.

أسئلة خبيثة، لكن قلبى عامر بحبه لصراحته ووضوحه، ونقاء سريرته، فلم أره يحقد على أحد ولا يحمل ضغينة لأحد.. فى بداية صداقتنا كنت مترددًا بين تصديقه وتكذيبه.. هل هو مؤمن حقًا بما يقول، أم أنها كانت للوجاهة..؟ وظللت أسائل نفسى حتى وجدته فجأة أمامى بعد طول انقطاع.. لكن ماذا حدث له..؟ أتطلع إلى وجهه طويلاً حتى تأكدت أنه هو.

- ماذا بك.. كفى الله الشر.

- احتد أبى فى مناقشتى فآثرت الانسحاب حتى تهدأ ثورته.

- احتد أبوك.. لاشك أنك أثرته.

ـ فقط خالفته الرأى فى شاب متواضع الحال، تقدم لأختى وهى مقتنعة به، لكنه يرفضه لفقره وتواضع مستوى أسرته المادى، وبمجرد أن قلت إن العروس موافقة، وهى التى ستعيش حياتها معه ومن حقها وحدها الرفض أو القبول ثار وماج. أكبرته وأسكنته قلبى.

قال لى ذات صباح وهو يناولنى الصحيفة.. أنا مبسوط بانتصارات الثورة الجزائرية، وعلى فكرة اعمل حسابك لنلتقى غدًا صباحًا لنذهب سويًا إلى جامعة القاهرة.. سيجىء لومومبا ونكروما وجومو كينياتا وسيكون معهم عبد الناصر، ثم قال والفرحة تملأ كيانه.. سنرى كل قادة التحرير الأفارقة.

هذا هو محمد عواض توأمى وزميل دراستى وصديقى اللدود، الذى ما أن يلج باب المدرسة حتى ينقلب إلى شخص آخر غير الذى أعرفه.. أنظره مندهشًا وأنا أسمع حواراته مع الغير، فأكاد أنكر أنه هو.. معقول..؟

ـ هل شاهدت فيلم عبد الحليم الجديد..؟

ـ يا سلام على أغنية بيع قلبك بيع ودك.

ـ لا لا لا.. ليس هناك أبدع ولا أجمل من صافينى مرة، وظالم وكمان رايح تشكى.. لأ دا أنت كان حقك تبكى.

لكن كله كوم وانكساره بعد الهزيمة كوم.. إحساسه بالإحباط، والاكتئاب وانزوائه فى حجرته محتميًا بجدرانها والصمت، رافضًا

مقابلة أى شخص، وبكائه الدائم وهو يردد.. ضحكوا علينا.. وظل هكذا حتى تمكنت من الدخول إلى حصنه.. جلست قبالته، مسلطًا عينى على عينيه دون أن أنبس بحرف، ثم قلت مفاجئًا: هل عرفت أن قواتنا على شط القناة دخلوا حربًا غير معلنة مع العدو؟

- ......

- حرب استنزاف.

- ......

- وأننا كل يوم نقتل من جنودهم العشرات..؟

- ......

- والله العظيم، وصلواتنا التى وقفنا فيها أمام الله سويًا أن هذا حدث ويحدث.

انفرجت أساريره، وهز رأسه ببطء شديد.

- وإن شاء الله سيجىء اليوم الذى سيخوض فيه جيشنا حربا فاصلة معهم ويبطل ادعاء يدهم الطولى.

تطلع إلىَّ وكأنه يسألنى.. متى..؟

- أقرب مما تتصور.

اعتلت البسمة ثغره.. بسمة غابت عنه طويلاً فبدت غريبة، واستمرت زياراتى له حتى استطعت أن أخرجه من حالته.. جاء إلى المدرسة فالتف حوله الزملاء فرحين..

- حمد الله على سلامتك.

- ما كل هذه الشياكة..؟

- قميص جميل.. رائع.

- لا، واللا البنطلون الچينز..

قال لى بعد أن صرنا وحدنا: ياأخى هذا الشعب غريب جدًا، ينهزم هزيمة نكراء لم تحدث لأى جيش فى تاريخ البشرية كلها وتتبعزق كرامته على أيدى أشخاص بعينهم، وبدلاً من محاكمتهم عسكريًا يخرجون إلى الشوارع والميادين ويهتفون لهم وهم يبكون ويهتفون، ثم سرعان ما يطلقون النكات ويغرقون فى الضحك وكأن شيئًا لم يحدث.

- ظاهرة تستحق الدراسة فعلا، لكن ما لفت نظرى أكثر هو موقف المسئولين الذين لم تهتز لهم شعره من هول الحدث.. شىء لا يتصوره عقل إطلاقًا.

- عكس اليابانى.. أى يابانى لا يتردد فى الانتحار إذا ما أخطأ فى حق وطنه.

- صدقنى.. كل هذا نتيجة طبيعية لعدم الشعور بالانتماء، وأعتقد أن أول خطوة فى طريق العلاج هو إعادة الشعور بالمواطنة لكل مواطن، بأن احترم صوته.. احترم رأيه.. أطلق حريته.. ألغى كل القوانين الاستثنائية، وبالجملة اعتبره شريكًا فى هذا الوطن، رأسه برأس أى شخص على قمة السلطة، وليس عبدًا يؤمر فيطيع.. لو تحقق ذلك ستختفى كل السلبيات التى تسحبنا للوراء.

- أتعتقد أنه سيجىء حاكم منا يؤمن بهذه المبادىء..؟

- المفروض أن لا ننتظر كل شىء يجيئنا على طبق من الفضة.. يجب أن نسعى نحن إليه، ونراقبه ونقومه إذا ما حاد عن الطريق، ولن يتحقق ذلك إلا على أيدى نواب شرفاء لديهم الرغبة لخدمة هذا الوطن، وهؤلاء لن يخوضوا أى انتخابات إلا إذا ضمنوا نزاهتها.

•••

جاءنى ذات مساء.. جلس غارقًا فى صمته، معتمدًا وجهه بكفيه، وقد اكتسى بأحزان الدنيا كلها.

نظرته مليًا علنى أدرك السبب، فلما أعيانى إدراكه سألته: مالك؟

قال: قررت ألا أحضر اجتماعات المنظمة ثانية.

(كنت قد أقدمت على ذلك، لكنى لم أشأ أن أخبره)

قال: لم أعد أحتمل.

سألته: تحتمل ماذا..؟

قال: أنت تعرف كل شىء، فقد سبقتنى إلى هذه، واتهمتك وقت أن عرفت ذلك بالتسرع، لكننى الآن أدركت أنك كنت محقًا.

سألته: نعم، ولكن ماذا حدث لتغير رأيك.

قال: ادركت أنها كانت مجرد تمثيلية، قمنا فيها بأدوار أفراد مثقفين يناقشون كل شيء داخل إطارها، ولم نكن ندرى أن الهدف من ذلك الكشف عن العناصر الثورية من جهة، ومن جهة أخرى استخدامنا كأبواق دعاية لهم، وظللت أسوف فى اتخاذ هذا القرار حتى استشهد زميل لنا فى معركة الكرامة، فأردنا أن نقيم له حفل تأبين، وأعددنا كل شيء وأطلعنا العميد على البرنامج، ودعونا الطلبة الفلسطينيين والأردنيين، لكننا وقبل الميعاد المحدد لإقامة الحفل بيوم فوجئنا باستدعائنا لمكتب العميد، كان فى انتظارنا ضابط مخابرات، أخطرنا برفض جهات أمنية إقامة الحفل، وطلب منا التوقيع على إقرار بذلك، فلما رفضنا استدعونا لإدارة المخابرات واحتجزونا ليومين، وأُرغمنا على التوقيع بعدم عقد أى اجتماعات سياسية بالجامعة.

يااااه.. أيام.. أين هو الآن يا ترى.. لماذا لم أعد أراه، مع أنى ألتقى ببعض زملاء الدفعة.. يوسف عبده، وفاروق بحر، ومحمود إدريس، وعبد الرحمن أمين، وعبد الحميد حسين، فما بال محمد عواض لا يظهر البته، كأن الأرض قد انشقت وابتلعته.. أيكون قد سافر إلى بلاد النفط.. مستحيل، فأمثاله لا يطيقون العيش فى الأجواء الخانقة.. قال لى ذات يوم:

اضرب لى مثلاً ببلد عربى تغير حكامه بانتخابات حرة - غير لبنان - ثم قال مستطردًا: يا أخى هؤلاء سبب تخلفنا.. أليس كذلك؟

- أنا أسمعك.

- كلهم يهرولون إلى أمريكا لتسبغ عليهم من بركاتها، وقليلاً من رضائها، معتقدين أنهم يستمدون سلطانهم منها وليس من شعوبهم.

إنسان عظيم، صادق مع نفسه، فعز عليه التواؤم مع الواقع المتخلف.

سألت عنه طوب الأرض..

- ألم تر محمد عوض..؟

- لم أره من مدة طويلة.

- ماذا عن محمد عواض..؟

- لم أره منذ تخرجنا.

- أيضًا..؟

- أيكون قد ركب الموجة وسافر..؟

- لا.. إطلاقًا.

●●●

تعطلت سيارتى فآثرت أن أتركها لدى الميكانيكى، وأعود طواعية لقرف المواصلات لعدة أيام.. علم بذلك فايز.. كيف..؟ لا أدرى.. فوجئت به يقف بأسفل شرفتى، مطلقًا آلة تنبيه سيارته، ويزعق باسمى.

.. أعوذ بالله.. ما الذى جاء بهذا اللزج..؟

انطلق بنا وهو يعاتبنى لعدم إخباره بظروف سيارتى، وأننى أعامله كغريب.

(والله أقل من ذلك، وأنك لا تنزل لى من زور، ولو كان الأمر بيدى لانتقلت للعمل بقسم آخر.. أُف.. أعوذ بالله.. إنك تخنقنى برزالتك)

وأنه أولى بتوصيلى بسيارته، وإن ذلك أقل واجب يمكنه القيام به.

(يا ابن الكاااالب.. لم كل هذا التزلف وليس ورائى ما يمكنك الاستفادة منه، فمن غير المعقول أن يكون هذا مجانًا.. لوجه الله.. عمومًا يجب أن آخذ حذرى منه.. ربنا يستر)

التقطتا عينا المنادى الصقريتين من بعيد، هرول نحونا - أقصد نحو سيارته.

أهلاً سعادة الباشا.. نورت الدنيا سعادتك.

(كل الألاضيش صاروا باشوات.. يابلد!)

نظرت إلى ساعتى.. أندهش غير مصدق.. أنظرها ثانية لأتأكد.. نصف ساعة قبل مواعيد العمل.

- تعرف.. هذا المنادى اشترى بالأمس قطعة أرض فى الحدائق وسدد ثمنها نقدًا.

فنجلتُ عينى على اتساعهما.

- لا.. ليس هذا فحسب، ولكنه اتفق مع شركة مقاولات كبيرة لإقامة برج عليها.

- ومن أين له هذه الثروة..؟

من بيع الهواء.

- نعم..؟!!

- نعم.. فقد باع الشقق على الرسم وقبض الثمن.

- آآآآه.

- ما رأيك..؟

- ....

- إبقى غمس مبادئك بخبزك الحاف وابلعهم على الريق، ثم اقترح عليَّ وهو يغلق باب سيارته:

ما رأيك فى اثنين شاى «كومبليه» فى جروبى..؟ أمامنا أكثر من ثلث ساعة.

- لا مانع.

قبل أن ندخل إلى حديقة جروبى سمعت من يصيح باسمى.. يا إبراهيم.. يا إبراهيم.

أتلفت يمينًا.. يسارًا.. من ينادينى فى هذه الساعة المبكرة؟!

يا إبراهيم.

وجدته يقف قبالتنا.. الوجه ترابى مكدود، هضيم، والرقبة طويلة مغروسة وسط كتفين بارزين، والعينان خرزتان لامعتان محشورتان فى نقرتين عميقتين، والشعر مهوش، منكوش، والجسد نحيل، يتكفن فى بدلة كالحة فقدت لونها من زمن بعيد، يتأبط بعض الصحف اليومية..

مد لى كفه، احتوتها كفى فى لهفة، ورف قلبى فرحًا بلقائه، زعقت فرحًا لما عرفته: أهلاااا عواض.. يااااه.. أين أنت يا رجل.. كم أنا أشتاق إليك.

وراح ينقل عينيه بيننا والأشجار القصيرة المتناثرة فى أرجاء الحديقة والسيارة التى كانت تقلنا، ثم نظرنى مليًا وقال فى أسى وهو يهز رأسه ببطء شديد:

أرأيت يا إبراهيم كيف أضاعوا سنوات عمرنا هدرًا..

كيف باعونا..؟ أحلام عمرنا نسفوها يا أبو خليل فى جلسة.. دم إخوتنا الذى اختلط برمال سيناء صار ماء.

أحسست بتوتره.. بانفعاله.. أشفقت عليه، فقلت له محاولاً تهدئته:

أين كنت طيلة هذه المدة..؟ لم أرك منذ تخرجنا.

برقت عيناه وهو يسألنى: لماذا تركونا إذن نحارب ونفقد زهرات شبابنا.. إخوتنا.. هاه.. لماذا..؟ لقد باعونا مجانًا.. الكلاب.

احتد صوته وارتفع، فقلت وأنا أتلفت يُمنة ويسرة:

أعرف.. أعرف يا عواض كل هذا .. فقط تعال معى، فأنا مشتاق إليك للجلوس معك والتحدث إليك فقد أوحشتنى كثيرًا.

صرخ غاضبًا: تعرف.. آآآه.. عرفت والتزمت الصمت.. قبضت الثمن.. صرت منهم.. ركبت سيارة وتجلس فى جروبى، هذا هو النضال يا صاحبى وإلا فلا.. وهذا أيضًا زميلك، من طينتك.. أكان معك فى المنظمة.. يا خسارة.. بعتم كل شىء وقبضتم الثمن، غير مهم.. تغرق البلد.. الناس تجوع.. تتكسر الرجال فى طوابير العيش.. مش مهم.. المهم أن تظل جيوبكم متخمة، وفى الليل تأكلون البتزا والهامبورجر.

وتركنى غارقًا فى عرقى وهرول مبتعدًا، ليقف فى نهر الطريق غير مبال بسيل المركبات التى تمرق من حوله، وصراخه يعلو وهياجه يتزايد..

يا كلاب.. يا خونة.. كلاب وخونة.. كلكم بعتم. ثم سار بضع خطوات وارتقى الطوار المقابل ووقف قُبالتنا، مشيرًا نحونا وهو يصرخ.. كلاب.. كلاب..

حاولت أن أقول له صائحًا وأنت يا عواض لماذا تهيم على وجهك هكذا.. لماذا تنسحب إثر كل مشكلة تقابلك.. هل هذا يحل المشكلة.. لماذا لا تواجهها بالعقل.. بالمنطق.. بالفكر..

لماذا لم تحاول أن تجد لها حلاً علميًا، واقتراح ما تراه مناسبًا، وطرح اقتراحاتك للمناقشة بمنطق من يريد الوصول لحل، لكنه

ولى مدبرًا دون أن يلتفت نحونا، فوجدتنى أولى وجهى عنه والسؤال يلح على رأسى.. نعم.. ماذا فعلت منذ انسحابك من المنظمة.

ورجعت إلى الوراء ورحت «ادعبس» فى مؤخرة رأسى علنى أعثر ولو على مقال أكون قد كتبته ونسيته أو حتى مجرد احتجاج، لكنه سحبنى من هناك بصوته اللزج:

الشاى برد

ثم سألنى مستنكرًا: مَن هذا..؟

غرست عينى فى عينيه الزرقاوين لأراهما غارقين فى بحر الدموع، وهو منكمش هناك فى ركن حوش المدرسة كقط عجوز.

سألته مباغتًا: كيف حصلت على الإعفاء من الخدمة العسكرية وأنت والحمد لله طول بعرض وصحة جيدة..؟

قال وهو ينفث دخان سيجارته فى ضيق.. لماذا تريد أن تعرف كل شىء فى الوقت الذى ترفض فيه أن تستفيد من أى شىء؟

قلت: لا.. أكيد سأستفيد.

دفس عقب السيجارة فى الطفاية وضغط عليها بأطراف أصابعه متوترًا، ثم قال: لأننى وحيد يا سيدى.

- إيه.. وحيد..؟

- اهدأ ولا تنفعل هكذا.. نعم.. صرت وحيدًا بعد وفاة أخوَى.

- أمتهما..؟!!

- على الورق فقط.

(يا بن الكاااالب)

- أستطيع أن أخمن ما همست به لنفسك الآن.

وانفجر ضاحكًا، ثم فاجأني بسؤاله:

لماذا لم تتزوج حتى الآن..؟ ألا ترى أن الأيام ستسرقك؟

- . . . . . .

- لقد تخرج أخوك منذ ثلاث سنوات.. أليس كذلك؟

- ولم يعمل بعد..

- على الرغم من تخرجه بتقدير.

- جيد جيد، وتقدم للعمل ملحقًا سياسيًا بالخارجية.

- الظاهر أنه «قفل» مثلك.

قالت لى أمى ذات صباح: كلم صاحبك، أكيد هو يعرف أناسًا كبارًا.

- أنا يا أمى..؟

خبطت صدرها بباطن يمناها وقالت: أنت تعلم أن لاشىء يتم الآن إلا بالواسطة.

- أو بالرشوه.

- مادمت تعرف افعل شيئًا.. وعلى رأى المثل «إللى تعرف ديته اقتله».

فى نفس اللحظة دخل علينا وحزن الدنيا كله مرتسم على وجهه، والدمع يترقرق فى عينيه.. لم أره على هذه الصورة.

مالك.. كفى الله الشر..؟

وكأنه كان ينتظر هذا السؤال ليتخلص من مخزون الحزن الجاثم على صدره.. انفجر باكيًا، منهنهًا.. أسرعت إلى النافذة لأغلقها وشراعة الباب.. أخذته فى حضنى.. أمى ألجمتها الصدمة، ظلت تنظره ثم أطلقت لصراخها العنان.

- إيه يا أمى.. غير معقول نلم الناس علينا.

أخذت ولدها فى حضنها.. ضمته إليها و.. إيه يا ولدى.. ماذا بك.. أحدث لك مكروه.. إنت سليم..؟

قلت له تماسك.. أنت راجل، وأى شىء يمكن علاجه، تماسك وقل لنا ما حدث، فربما..

قاطعنى قائلاً: إلا هذه.. لا أعتقد أنه ممكن علاجها، لقد عينوا التالى لى فى الترتيب، وأسقطونى تمامًا من حساباتهم، ولما أصررت على معرفة السبب قالوا لى تحرينا عنك وعلمنا أن أباك كان يعمل ساعيًا.

قلت لهم: أهى من الأعمال المخلة بالشرف، وهل كل المصريين يعمل آباؤهم فى سلك القضاة أو المحاماة أو فى الهندسة.. هل الأعمال البسيطة صارت سبة..؟

أولوا كانوا تجار عملة أو مخدرات أو مهربين أو... أصموا آذانهم وأصروا على الصمت، ثم قام أحدهم وأخرجني من الغرفة وأغلق الباب.

أخذته في حضني وربت كتفه وأنا أقول له: ولو.. اصمد.. لا تدعهم يهزمونك.. سيكونون سعداء لو رأوك على هذه الحالة لأنهم سيكونوا قد وصلوا لهدفهم.. امسح دموعك ولنفكر في الحل.. لابد من حل نفرضه عليهم وإلا فالموت أحق بنا.

مـــــأمـــــورية

مأمورية

١ - سفر

- شهيق هواء نقى مدفوع الثمن

عبر الهاتف جاءنى صوته آمرًا باترًا: تعال حالاً.

ضغطت على بعض مفاتيح لوحة التشغيل فانمحت الأرقام التى كانت تملأ شاشة الحاسب أمامى.. قمت من فورى والتقطت الجاكتة من المشجب، وتحسست أصابعى تلقائيًا رباط العنق للتأكد من سلامة وضعها بين حدى ياقة القميص.. التقطتنى أعين السعاه المرصوصين أمام مكتبه، فهبوا واقفين، بينما أسرع أحدهم إلى الباب يفتحه.. التقطت عيناى علامات الاستفهام المطلة من أعينهم..

يا ساتر يارب.. ماذا حدث حتى يتم استدعاؤه فى هذا الوقت المبكر..؟!

نقلت خطواتى مرتابًا حتى وجدتنى أمامه.

ـ صباح الخير يا فندم.

ضغط على زر «الديكتافون» وقال آمرًا: هات المذكرة وتذكرة السفر وتعال حالا.

الوجه متجهم وطرفا حاجبيه العريضين معقودان، والكلمات قليلة قاطعة: تخرج من هنا على المحطة من غير ما حد يعرف.. أجرد الخزينة وأفحص الشيكات وراجعها مع كشوف البنك وبلغنى النتيجة بالتليفون.

(المهمة بسيطة يمكن أن يقوم بها رئيس الحسابات، أو أى مراجع لكنه اختارنى ليظل الأمر محصورًا بيننا، حتى لا تتزعزع صورته لدى الوزير إذا ما تناثر الخبر ووصل إلى أذنيه).

جرت عيناى فوق الأحرف الدقيقة المطبوعة بعناية على التذكرة..

قطار... عربة ٧، مقعد ٣٢، قيام ٩ ص، رصيف ٤.

قال قبل أن أنفلت خارجًا: سيارتى فى انتظارك.

كان القطار واقفًا على الرصيف.. ها هى العربة ٧ بالدرجة الأولى.. تسبقنى عيناى.. تلتقطان الأرقام المثبتة على حافة أرفف الحقائب.. ها هو المقعد ٣٢ فى صف المقاعد الفردية.. أنزعج من المقاعد المشتركة، فحمدًا لله.

هواء مكيف محا ضيقًا متراكمًا فى الصدر من زمتة الحر والرطوبة العالية.. لون السجاد الأحمر المؤطر بالخطوط البيضاء

يخلعان رونقًا على العربة الأنيقة.. انساب صوت المذيعة الرقيق من السماعات الصغيرة، غير المرئية إلى أذنى معلنًا عن قيام القطار مباشرة إلى الإسكندرية

(لكن ماذا حدث هناك، وكيف عرف الرئيس..؟ هل تقاعست إدارة الحسابات فى الجرد الدورى والمفاجىء..؟ لا أعتقد فالتقارير تصلنى منتظمة.. إذن ماذا حدث..؟!!.. لابد أنه شىء خطير.. اختلاس أو تزوير فى شيكات.. لكن هل يُعقل أن يختلس الرجل بعد كل هذه السنوات من خدمته..؟ المهم أن أبدأ بالتحفظ على أساتذة الصندوق والبنك، ثم جرد الخزينة)

صباح الخير يافندم.

أخذنى من عالمى صوته المهذب.. شاب وسيم، محبوكة ملابسه على عوده الممتلىء فى غير إسراف، «والبابيون» الأسود المشدود على رقبته والمثبت بين حدى ياقة قميصه الأبيض خلع عليه رونقًا وبهاء، ولكن ريحه ثقيل وأدبه المفتعل زاده سماجة.. يدفع أمامه «تروللى»، تزاحم سطحه بزجاجات المياه الغازية ومعلبات العصائر وأطباق البلاستيك البيضاء تحوى شطائر فى حجم الإصبع مغلفة بأوراق السلوفان تغطى الأرفف.

- اتفضل

ناولنى إحداها وسألنى عن نوع الشراب الذى أفضله.

قلت: قهوة ع. الريحة، وياريت تشوف لى الأهرام.

قال: حالاً يافندم.

(لكن إذا لم أكمل المأمورية اليوم فهل سأبيت هناك..؟ لا لا.. الموضوع بسيط وإن شاء الله انتهى منها اليوم، الساعة الحادية عشرة، القطار يتهادى قبل أن يقف على المحطة.. انفلت خارجًا إلى الميدان المزدحم.. أشرت إلى سيارة أجرة.

●●●

اتجهت للتو إلى مكتب المدير العام.

قلت آمرًا: سنستمر فى العمل حتى ننتهى من الجرد.

اتسعت حدقتا عينيه دهشًا، قال متسائلاً: سعادتك بنفسك.. طيب ليه..؟

قلت: لو سمحت استدعى رئيس الحسابات.

جاء مصطحبًا أحد المحاسبين.. أمرته بإحضار دفاتر أستاذى الصندوق والبنك وكشفى حساب البنك الأخيرين.. كان الأمر باتًا، باترًا، فلم يتساءلا عن السبب.

فى العاشرة والنصف كنا قد انتهينا من كتابة المحضر بعد أن أبلغت الرئيس هاتفيًا بالنتيجة.. أحسوا بنيتى للسفر.

فقالوا: الاستراحة جاهزة يافندم، والسفر فى الصباح أفضل، وإن شاء الله نحجز لك فى نفس القطار إللى سعادتك جيت فيه.

قلت: أنا مش مهيأ نفسى للبيات.

- مش حتلاقى قطر مناسب دلوقت، والسفر بالبيجو خطر بالليل.

- أى قطر أو حتى السوبر جيت.. وصلونى المحطة وأنا أتصرف.

●●●

اتجهت مباشرة إلى منافذ حجز التذاكر.. أمسكت بذيل الطابور.. نصف ساعة ضاعت فى الانتظار، أخيرًا وصلت للشباك.

- أولى القاهرة من فضلك.

- مافيش النهاردة.. آخر قطر الساعة اتناشر كله محجوز.

- والعمل..؟

- ممكن بكره.

موقف «السوبر جيت» خلف المحطة.. جريت تجاهه.. صدمتنى منافذ بيع التذاكر المغلقة، قالوا لى: آخر عربة قامت من ساعة ونصف.. (اركب أى قطر.. ثانية، ثالثة.. ارجع الاستراحة وكلم الأولاد بالتليفون.. لا.. لا.. لا يمكن..)

وجدتنى فى قلب محطة السكة الحديد.. أكوام من البشر أمام الشبابيك.. ليست هناك طوابير.. وبعد.. كيف يمكننى النفاذ من بين هذه الأجساد المتلاحمة..؟

التقطت عيناه حيرتى، فاقترب منى متسـاً: على فين ياأفندم..؟

- القاهرة.

- ولا يهمك.

ناولته الورقة المالية المطوية فى يمينى وفى قلبى ريب قائلاً:

تانية من فضلك؛

- تانية زى تالتة فى القطر ده.

- معلهش.

- براحتك.

اندس بينهم.. لم يبن.. غاب طويلاً، فلعب فى عبى الفأر.

(عوضك على الله.. الظاهر ما فيـ...)

وجدته أمامى، مادا يده بالتذكرة.. اتفضل يابيه.

نظرته فهالنى ما أصبح عليه حاله.. العرق يغطى وجهه، وشعره صار مهوشًا وتكرمش قميصه.

دس التذكرة فى يدى قائلا: كلها عشر دقائق والقطر يقوم.. مع السلامة.

- طيب خد.. تعال.

أردت أن أجزيه أجر ما فعل معى، لكنه كان فص ملح وذاب.. فرجعت إلى نفسى وأنا أردد: الحمد لله.. لسه الدنيا بخير.

٢ – عوده:

آخر زفرة من صدر ضاق هوانا

كل العربات مكدسة، وأبوابها مسدودة بأجساد ركابها.. أطلق القطار صفيرًا كصراخ مريض مأزوم، فدسست قدمى بين الأقدام.. خفت من السقوط تحت العجلات فانحشرت بين الأجساد المتلاحمة الواقفة بين المقاعد، تشبثت أصابعى بظهر أحد المقاعد.

الحر شديد والرطوبة عالية تزهق الأرواح، والغبار الذى أثاره القطار ينفذ من خصاص النوافذ المكسورة ليهاجمها بضراوة.. اختنق، والعرق يبلل جسدى، فتلتصق به ملابسى الداخلية.. أنفخ ضيقًا ومللاً، وأود لو أصرخ لأخلص نفسى منها، لكن هيهات.. فأنى لى هذا وسط هذا الحشد.

بطيئًا بطيئًا تحرك القطار.. يتصاعد لغط الركاب، نداءات الباعة، بكاء طفل، خلية نحل تزن، طنين آلاف الذباب.. لكن من أين جاء كل هؤلاء الباعة..؟

– البيه منين..؟

أخرجنى من شرودى، نظرته فرأيت عينيه الجاحظتين مصوبتين نحوى.. ملتصقتين بوجهى.

(والله أنا مـا طايق نفـسى دلوقت، ولو حـد لمس مناخـيرى حانفجر.. أنا يا سيدى من جهنم الحمرا.. ينفع..؟)

عيناه مازلتا متشبستين بشفتى، قلت لأتخلص من مطاردتهما: من جهنم.

قال مبتسمًا: أحسن ناس.

- نعم.

- أصل حضرتك مش وش بهدلة.. إيه اللى ركبك القطر ده..؟

- مرغم.. مضطر.

- أنا نازل كفر الدوار.

استماتت أصابعى بمسند مقعده وشعور بالخجل يعترينى، ولم أهتد لطريقة أعتذر له بها، فلذت إلى الصمت.

شباشب جلد طبيعى..

إلهى يخليكوا وترجعوا لولادكم بالسلامة تساعدونى عشان أربى الأيتـام. دفـعنى شـحط وهو يلقى بأكـياس اللب على حـجـور الجالسين، وهو يجعر: اللب واتسلى، ماكدت ألتفت تجاهه حتى اصطدمت جبهتى بمؤخرة جردل مملوء بزجاجات مياه غازية، يحمله شحط آخر: بل ريقك.. حاجة ساقعة يا عطشان.

تحسست جبهتى. فزعت من كمية الدم التى غطت أصابعى.

● عَوَرت الراجل يا بهيم.

● يعنى كان لازم يقف فى سكتى.

● ما حدش معاه شوية بُن..؟

● اربط الجرح قوام.

● تعالى ياأستاذ اقعد مطرحى.

أحسست بدوار.. المقعد خشن.. آلم إليتى، والغبار المثار مازال يهاجمنى، وعجلات القطار تهرس رأسى.

- اتفضل سيجارة.

نظرته مليًا قبل أن أرده شاكرًا: ما بدخنش.

قال فى ود: خير مافعلت.

سأله جاره: معاك كبريت..؟

قال: ماعكش حاجة..؟

أجاب: معايا.

قال: طب ولع.

إلهى ما يرميكو فى ضيقة تساعدونى.

شاى شاى شاى

حمص وحب العزيز.. شى الله يا بدوى.. حمص.

دخان اللفائف الأزرق يحوم فوقى.. يلتف حول رقبتى.. يندس إلى أنفى.. حلقى.. أسعل.. أسعل.

ماقولنا لك خد لك واحدة تعمر بيها الطاسة وأنت تروق.

انظره شذرًا فيبادر بالاعتذار.

(ريقى ناشف.. حطب.. أحسه يتكسر.. شوية ميه يا ناس.. لكن فين؟!) انطفأت مصابيح العربة الكابيه.. عمت الظلمة.. دهمت الأعين فلم يعد للمرائى وجود.. أحسست بأصابع تعبث فى جيبى.. أسرعت إليه أصابعى لتمسك بها فلم تجد حافظة نقودى.. صحت زاعقًا: حرامى.. محفظتى..

انبرى أحد الركاب قائلا: يعنى مش كفاية البهدلة وسيحان الدم، كمان تسرقوه، رجوت السارق الذى لم أتبينه بأن يأخذ النقود ويرمى المحفظة.

قال قائل عوضك على الله.

قال آخر: عاوز فلوس عشان تروح..؟

أسند رأسى بكفى.. معقول.. الواحد يتعرض لكل المهانة دى، وكمان للسرقة فى بلد نص ميزانيتها بيتصرف على الأمن، وبعد كده بيسألونا: فين الانتماء..؟ أى انتماء بعد ما يتعرض الإنسان لكل ده..؟

●●●

نظرتنى فى مرآة دورة مياه المحطة فانكرت وجهى.. شعرى المهوش، رموشى التى كساها التراب.. بقع الدم المتناثرة فوق ملابسى.. سرت منكمشًا على نفسى.. لمحت سيارة أجرة.. أشرت

للسائق.. مسحتنى عيناه، قال ساخراً وهو يشير نحو الموقف: محطة الأتوبيسات هناك آهيه. وأطلق ضحكة عالية.

- إتفوه.. كلاب أولاد كلاب.

- لو سمحت.. إنت.

الصوت يأتينى من خلفى.. يقتحم أذنى.. تلفت.. نظرته مرتابًا..

سألت: أنا..؟

قال بصفاقة: أمال أمى..؟

- نعم..؟

- بطاقتك.

- ليه..؟

- إنت حتخش لى قافيه..؟

بأسأل حضرتك ليه..؟

- شكلك وحش، مش ولابد، مش عاجبنى.

- دا أنا المدير المالى لشركة الـ.

قلب شفته السفلى فى قرف، وقال وسبابته مصوبة نحوى: إنت؟؟

ثم كركع ضاحكًا.. هاهاها..

- يا أخى الشكل مش كل شىء.

- بطاقتك..؟

- اتسرقت فى القطر.

قبضت يده على ذراعى.. ضغط عليها بشدة وهو يدفعنى أمامه، حتى وصلنا إلى طريق جانبى، تقف على ناصيته سيارة شرطة بصندوق كبير..

ـ اطلع.

ودفعنى لأرتقى سلمًا خشبيًا لأجدنى حبيس هذا الصندوق.. مذعورًا رحت أتلفت حولى.. لم أر إلا وجوهًا ممرورة وأعينًا مذعورة وأجسادًا ممصوصة، ثم تحركت بنا السيارة تجوب شوارع العاصمة.. تتوقف بين الحين والحين لتستقبل أعدادًا أخرى.. يتكدس الصندوق،، صارت الحركة داخله مستحيلة.. تكومت الظلمة وانتشرت رائحة خانقة، وانتشر السعال، أشرئب بعنقى نحو الطاقات المسيجة بالشباك الحديدية، علنى أتشمم هواء متسربًا منها أو بصيصًا من نور يطمئننى على حاسة بصرى لكن دون جدوى.. أحسست باختناق.. بدوار فى رأسى.. بخوار.. أسقط.. أتدحرج.. أكوم جسدى بين ذراعى كى لا تدوسنى الأقدام.. كى.. لا.. أنـ..سـ.. حـ.. ق.

مساحة من الزمن الجميل

مساحة من الزمن الجميل

يااااه.. كل هذه النقود..!! كيف سأحصيها..؟ لقدكنت أقع فى حيص بيص يوم كنت أقبض راتبى.. لقد كانت بضعة جنيهات، لكننى كنت أعدها، ثم أطويها وأدسها فى جيبى، ثم لا ألبث أن أخرجها لأعدها ثانية، وأظل هكذا حتى أصل إلى البيت وأعطيهم لها.. زوجتى الطيبة.. الله يرحمها، ماتت ورحل معها الزمن الجميل. أفرد الورقة أمام عينى، غير مصدق وأنا أقرأ الرقم، فأدعك عينى، ثم أظل أرنو للورقة، وتظل عيناى مفنجلتين، والرقم يظل يكبر ويتجسد.. خمسين ألف جنيه.. يا خبر أبيض.. معقول..؟! كيف سأحتفظ بهذا المبلغ فى البيت.. يا قوة الله ياولاااد.. وإذا فرض فأين أخبئه..؟

أتلفت حولى.. تجوس عيناى بين الكراسى العرجاء والدولاب مخلوع الضلفتين، والمنضدة القديمة التى ورثتها عن جَدى وسرير معدنى، ورف خشبى ينوء بحمل مذياع قديم متهالك، يملأ الحجرة زعيقًا وخشخشة. أيوه.. فكرة هائلة.. أخبئه تحت هذا المذياع..

ولكن ربما يعلم لص بحيازتى لمثل هذا المبلغ فيجىء ليلاً ليسرقه، ولما لا يجده يقتلنى غيظًا.. يا خبر مش فايت.. الأفضل أن أودعه أحد البنوك.. نعم.. هذا هو الحل الأمثل.. بمجرد أن أستلمه أودعه البنك.. لكن يجب أن أجنب منه بعض آلاف لأشترى بعض الضروريات.. سرير خشبى، ومرتبة جديدة طرية ومخدة ناعمة وبطانيتين أحتمى بهما من لسعات البرد القارس، وقميصين ثلاثة، وبنطلونين ثلاثة، وحذاء وشوية شرابات.. يااااه.. منذ متى وأنا أرتدى هذه الملابس..؟! عشرة طويلة، تحسب بالسنوات، كذلك أحتاج لكثير من أدوات المطبخ والطعام.. حلتين ثلاثة.. شوية أطباق.. شوية معالق.. كام كوب..

تظل عيناى تجوبان فيما حولى.. يااااه.. كأننى لم أر طلاء الجدران المتساقط إلا توا، ورشح الماء فى جزئها الأسفل، ولمبة الكهرباء المتدلية من السقف كرأس مشقوق متيبس، فآثر الاختباء تحت الغبار.

تحسست بطنى الضامرة.. قلت لنفسى هامسًا: منذ متى لم تذق الزَفَر..؟ لا ضير أن أنفق بضعة جنيهات أو أكثر لوجبة دسمة..

أذهب إلى الحسين لآكل عند الدهان، أو كوارعى العهد الجديد..

يااااه.. تُرى كل ثمن الوجبة عندهما الآن.. كنت أدفع خمسة عشر قرشًا يوم كانت تأتينى النقود من البلد أيام الدراسة..

إيـ يـ يه.. أيام ذهبت لحالها.. لم يعد المكان لأمثالنا.. الأماكن كلها صارت سياحية.. المقاهى والمطاعم.. حتى الطرقات صار يشغلها عسكر السياحة.. كل شىء تغير.. حتى شارع الأزهر صار كئيبًا، مزدحمًا، يعلوه كوبرى كئيب. ليس مهمًا الذهاب إلى هناك.. كل المحال تحولت الآن إلى مطاعم.. صحيح أن معظمها أمريكية، والفراخ بيضاء لا طعم لها، لكن ما باليد حيلة أمام اشتهائى لأكلة دسمة أرم بها عظامى.. تمامًا كما أشتهى لنومة هادئة فوق مرتبة طرية ووسادة ناعمة، لا يقلقنى عليها وسواس بالموت جوعًا، أو شبح الطرد من الحجرة الذى صار أقرب من حبل الوريد بعد أن انكسرت الأجرة لبضعة أشهر.

آآآه.. إذا حدث هذا الأمر فإلى أين..؟ إلى الشارع أو حديقة منزوية فى البعيد، أقضى فيها ما تبقى لى من عمر، مختبئًا من أعين العسس.. أين بطاقتى..؟

ها هى.. الحمد لله، سينقذنى وجودها من لف أقسام الشرطة كعب داير.. لقد صارت متهرئة.. لا ضير.. فإن بياناتها واضحة الاسم، تاريخ الميلاد.. الوظيفة.. معاون خدمة.. هأهأ.. يعنى رئيس فراشين.. آه.. نسيت أو كدت أنسى، يجب أيضًا أن أجنب مبلغًا لصديقى وزميلى من أيام الصبا.. سيد حنفى، الذى واصل دراسته حتى حصل على دبلوم التجارة.. مسكين.. تمكن المرض من قلبه.. أنشب فيه أظافره، رقد فى المستشفى على رجاء الشفاء، طالت رقدته فأحيل إلى التقاعد قبل أن يبلغ الخمسين، كان ممتلأ شبابًا

وحيوية.. مورد الوجه كزهرة ندية.. نضرة.. تشرئب متباهية بصحتها وجمالها.. سرعة بديهة وذكاء نادرين يتمتع بهما.. قفشات لاذعة وتعليقات ساخرة تنبىء عن خفة ظل أصيلة.. يضفى على المكان الذى يتواجد فيه البهجة والسرور..

مسكين.. أين هو الآن..؟

يومها سقط القلم من يده، ووقع رأسه على صدره، وراح يتأوه فى وهن وضعف، ثم غاب بعيدًا..

جرينا إليه، بللنا وجهه وشفتيه، وجلبنا له الهواء، وزعقنا نسأله مشفقين: إيه يا سيد.. مالك..؟ ماذا حدث..؟ واعترانا الخوف عليه، فرحنا نتخبط، لا ندرى ماذا نفعل.. حتى جاء الفرج لما أطلق أحدنا صرخة ملتاعة، مغموسة بالخوف: اطلبوا له الإسعاف.

جاءت العربة، ونقلته إلى المستشفى.

- استثمارية..؟

- هى المنتشرة الآن.. وحتى الحكومية بمصاريف.

- آه.. لم يعد شىء بالمجان.

- الحمد لله إن إمكاناته تسمح وإلا كان ضاع.

- المهم ألا تطول إقامته فى المستشفى.

وانتظرنا عودته، لكنه لم يجىء، فقد أعطب المرض قلبه.. هاجمه بشراسة، وصيره هيكلاً، ونفد ماله فاضطر للرقاد فى

البيت، مكتفيًا ببلبعة الأقراص.. مسكين.. من يراه الآن لن يعرفه.. وَهَن عظمه واشتعل رأسه شيبًا، وتغضنت بشرته فصار شيخًا يحمل السنين الطويلة التى لم يعشها فوق كاهله.

لأذهب إليه.. أكيد إنه سيحتاج لمساعدة، ولو بضعة جنيهات، علها تخفف عنه بعض آلامه..

آه.. وبضعة آلاف أخرى لبناء ملجأ، ومعهد لتعليم الصغار حرفًا تقيهم أجورها شر الحاجة، ومستشفى لمرضى الأمراض العقلية بدلاً من تلك التى هدموها وطردوا نزلاءها ليهيموا فى الطرقات على وجوههم يروعون خلق الله، ودار للمسنين، ومستشفى لعلاج الفقراء مجانًا، وبعض آلاف أخرى لشراء أغطية للبالوعات الفاغرة أفواهها لابتلاع أبنائنا وإخوتنا فتصيب قلوب ذويهم بالجوع مرتين.. مرة لفقدهم المفاجىء، ومرة لما تعرف قدرهم عند المسئولين، إذا يطل السؤال من أعينهم عند استلامهم التعويض المادى: أهذا ما يساوونه فى نظركم..؟ إن هذا لهو البلاء المبين.. آآآه، واعمراااه.

اللاااه.. ما أجمل أن تحلم وأنت مسترخ فوق سريرك حتى لو كان قديمًا ويزيق من تحتك، أغمض عينى لأعيش سعادة مسبقة على الفعل فيتضاعف إحساسى بها، أمد ذراعى لألتقط علبة سجائرى.. أشعل واحدة.. أظل أرنو إلى اللهب منتشيًا.. يطل علىَّ وجه كليوباترا الجميل ببسمتها الرائقة العذبة..

حلوة الحياة عندما تخلو من الهموم، وعذابات الناس وآلامهم وأحزانهم وقهرهم.

غدًا أو بعدغد أو.. بعد أن أنتهى من كل ما انتويته أرجع إلى البيت لأخذ حمامًا دافئًا، وارتدى ملابسى الجديدة، قميص نصف كم، وبنطلون جينز وحذائى الجديد، ثم أنفلت خارجًا فى منتصف الليل بعد أن يهجع الناس إلى بيوتهم.. ما أجمل القاهرة فى هدأة الليل، حيث السكون والنسمات الطرية تداعب الوجوه وتمسح عنها عناء القيظ وزمتة الرطوبة البشعة.. أظل أسير وأسير حتى أجدنى بحذاء النهر.. أملأ عينى من منظر الماء الراقد ساكنًا فوق سرير النهر الممتد إلى مالا نهاية، تغار الريح من رقدة الماء فتنفخ سطحه نفخة هينة، فيفزع موجه ويدخل فى سباق هادىء جميل.. باعة الترمس متراصون فى صف لا عوج فيه، ترتفع قراطيس الورق من جوانب عرباتهم كمآذن قصيرة والقلل تغطيها عساكر نحاسية لامعة، أميل نحو أحدهم.. أروى ظمأى من ماء القلل الزلال، وأشترى قرطاسًا يملؤه البائع بالترمس والحمص، أسير نحو النهر.. أفترش الأرض عند حافته.. أخلع حذائى وأغمس قدمىَّ فى مائه الذى حُرمت منه منذ تركت قريتى صغيرًا .. غدًا أو بعد غد أو.. أفعل ما أصبو إليه.. لكن متى يجىء هذا الغد؟ آآآى.. أتثاءب.. يهاجمنى النعاس.. أدس يدى فى جيبى.. تقبض أصابعى على الورقة الراقدة فيه، أبسطها أمام عينى.. خمسون ألف جنيه.. يا نصيب جمعية الـ.. أفرك عينى بأناملى وأعيد القراءة.. الجائزة الأولى.. أطويها بعناية.. أدسها ثانية فى جيبى.. أتحسسها.. أطمئن لرقادها فى أعماقه.. أتقلب على جنبى الآخر مغمضًا عينى.. أدس ذراعى بين ساقى.. أغـ.. فـ..و.

صرخة الدم

صرخة الدم

هاجمه الظلام والصمت فأدرك أن الصبح لم يجيء.. انكمش تحت الغطاء وأحكمه حوله، وأغمض عينيه، لكن النوم تأبى عليه.. ربما لشدة فرحته التى عاشها قبل أن يطويه النوم إلى رحابه، تلك الفرحة التى انتظرها طويلاً حتى عزت وظنها لن تجيء، فلما جاءت أغرقت الناس فى سعادة لم يذوقوا مثلها.. زاطوا.. زعقوا.. هتفوا.. غنوا، وأحس بدنو استعادة الأمجاد الغائرة فى تربة التاريخ، وصوت مذيع يزعق: أسقطنا طائراتهم وجيوشنا آخذة فى التقدم.

تململ وظل يتقلب على جبينه، ويباعد بين فكيه، لكن هيهات، فالعينان بقيتا مفنجلتين فى الفضاء الأسود.

لكنه - مع ذلك - أغمض عينيه، ودفس ذراعيه بين فخذيه، فأحسه ينقض عليه.. يكتم أنفاسه.. يزعق صارخًا.. آآآآه.

اقتربت الروح من الحلقوم فانطلق لسانه بالشهادتين، ثم هب قاعدًا، محتويًا رأسه بكفيه وهو يردد: ياساتر يارب.. ياساتر.

تحسس صدره.. رأسه.. وجهه، ثم راح ينظر إلى كفيه..

الحمد لله.. الحمد لله.. مازلت حيًا.. لم أُقبض بعد.. همس لنفسه. ثم قام يتمطى.. توضأ وصلى، ثم انسل إلى الشرفة كعادته، يملأ عينيه بورود حديقته، والصدر بهواء الصبح الندى، ثم جلس يتناول طعام إفطاره، وقبل أن ينفلت إلى الطريق نحو عمله تناول جريدة الصباح من عقب الباب.. جرت عيناه فوق الأحرف الكبيرة.. لم يصدق عينيه، جرى إلى المذياع.. أدار مفتاح التشغيل.. صوت حزين منكسر انساب من داخله.. انسحبت قواتنا إلى خط الدفاع الثانى. يزعق محتجًا: لا يمكن.. لا يمكن..

ثم عاد إلى الصحيفة ليتأكد من الخبر.. يكورها بين يديه، يطوحها مغتاظًا، زاعقًا: ياولاد الكلب.

تصطدم بالجدار.. تسقط مكومة بجوارها، ومازال يصرخ بالسؤال: كيف.. كيف..؟ ضحكوا علينا كل هذه المدة..؟!

ثم هب واقفًا.. فتح الباب.. خرج، ثم صفقه بعنف، فدوى كقنبلة مكتومة.. كاد ينكفىء وهو ينزل الدرج.

التقطه الطريق.. كل الناس تسير منكفئة وكأنها تحصى خطواتها فلم يبال لدموعه المنسالة تغرق وجهه، ترك لنفسه العنان فنهنه.. تحوطته الوجوه المكتئبة، فأزال دموعه، لكن الوجه الوردى صار بلون الدم، والشعيرات الحمراء افترشت بياض العينين.

يقترب من مقر عمله.. انتبذ مكانًا قصيًا.. توارى من الناس ليفرغ شحنة كمده.. يبدو أن لا نهاية لهذا الهوان.

قال لنفسه وهو يجرجر خطوه نحو المصعد.. أستقرئ الوجوه.. كانت واجمة تائهة.

حط الجسد على المقعد دون أن ينبس بكلمة، حاول أن يبدو رابط الجأش، لكن كيف والنفس تمور بالحزن، والجسد تعتريه الرعشة، والعينان تائهتان.

جاءوه، والتفوا حوله.

- لست وحدك.

- العار والخزى يعترينا . قبلهم.

- ومع ذلك يجب أن نتماسك.

- فضفض لتتخلص من أحزانك.

لكنه أبدًا لم ينطق

- لم لا تتكلم..؟

التصقوا به، غاصت أعينهم فى عينيه، كانتا مرشوقتين فى البقعة السوداء فى سقف الحجرة لا تطرفان، وقد صار سوادهما رماديًا.

مـــــعــــــقـــول..؟!

معقــول..؟!

أحصى مـا معـه من نقـود.. جنيه، خـمسـة، عـشرة، عـشـرين، خمسين.. مائة، مائتين..

رأى عربة أجـرة مقبلة من بعيـد.. تقدم، تأخـر، أحجم. لا لا.. الأتوبيس أوفر.

مائتين وخمسين..

دس النقـود فى جـيب داخلى، منكمـشًا وقف، مـتـوجسًا تلفت حوله.. لمحه بطرف عينيه واقفًا غير بعيد.

(من..؟ عم شحاتة البواب..؟ هـو.. نعم هو.. بشـحمه ولحمه.. مصيبـة، مـا الذى جاء به إلى هنا..؟ ولماذا الآن..؟ وإلى أين يذهب فى هذا الوقت..؟)

ابتعد متمتمًا: الأفضل أن أركب «السيرفيس».. لا لا..

(أفـوت أول أتوبيس فـربما يركـبـه، وأركب الذى يليـه، لكنى سـأتأخـر.. أووه.. يبدو أننى سـأضطر أن أدفـع له ثمن التذكـرة.. لا لا.. أحاول أن أتجاهله.. نعم.. ابتعد عنه كلية.

●●●

لمحها آتية من بعيد، وجد نفسه فى جوفها.. تلصصت عيناه فى حذر.. أحس بقلبه يهوى من مكانه لما رأى خياله فى زجاج نظارته.. شق الأجساد المتلاحمة مبتعدًا.. وقف مواجهًا باب النزول.

●●●

رآه العم شحاته فانبسط وجهه فرحًا.. انتوى أمرًا سُر له..

حل عُقدة منديله عن الورقة المالية الصغيرة، ناولها للمحصل.. أخذ التذكرتين. زعق فرحًا وهو يلوح به:

خلاص يا بيه.. ماتقطعش.. أنا قطعت لك.

خلع الدهشة على صفحة وجهه وهو يتساءل وكأنه فوجىء به:

- مين.. عم شحاته..؟!

- صباح الفل يا بيه.

- دا واجب علينا يا راجل.

- واحد يا بيه.

مضغ غيظه وهو يهمس لنفسه: واحد يابن الأبالسة..؟! ثم سند ظهره إلى الفاصل الزجاجى المنتصب فى وسط الحافلة، ليدس يده فى جيبه ويخرجها قابضة على منديل فى لون الطين، محاولاً أن يمسح به عرقًا لم يند به جبينه، بينما إحساس بالراحة كان يسرى فى كيان العم شحاته وهو يدس منديله - الذى حلت عقدته - فى جيبه.

وتمت أقوالهم

وتمت أقوالهم

خاصرته حتى الباب.. قالت له وهو يغوص بعينيه فى بحار عينيها العميقتين: لا تتأخر، وقبلته.

تواثب خطوه فوق الدرج، قبل أن يطويه الطريق، التقطت أذناه صوتها: سأنتظرك على الغداء.

قال واثقًا: لن أتأخر.

شد الخطو إلى محطة الحافلات.. جاءت متخمة.. الأجساد متلاحمة، لم يتردد.. أقدم.. بين الأقدام حشر قدميه.. ما أن استقر واقفًا بين الأجساد حتى أحس بيد تعبث فى جيبه.. أمسك بأصابعها وزعق صارخًا: حرامى.. حرامى.

أفلت يده، قفز من العربة، قفز وراءه.. لاحقة زاعقًا: حرامى.. حرامى.. كاد أن يحلق به، مد ذراعه ليمسك به.. استدار فجأة.. غرس فى صدره نصل مديته وجرى.

غرق فى دمه صارخًا: آآآخ خ.

تجمع المارة حوله.. سكبوا حسراتهم على شبابه الغض وانفضوا.. وجاء آخرون.. تجمعوا.. مصمصوا شفاههم.. تحسروا وانصرفوا.

تحمس البعض.. زعقوا: حد يطلب الإسعاف.

- والشرطة.

ثم غطوه بصفحات جرية.

●●●

ساعات ثم جاء يتأبط أوراقه.. ألقى سؤاله على الجمع الملتف حول الجثة: مَن صدمه..؟

مطوا شفاههم وهزوا أكتافهم.

- ألم يلتقط أحدكم رقم المركبة..؟

همس أحدهم للآخرين: كلمة واحدة من أى واحد وتتفتح عليه أبواب جهنم.. كل يوم استدعاء لقسم الشرطة، وسين وجيم، ونيابة ومحاكم، ولن يرحمك منهم إلا الموت.

اغتاظ من صمتهم، فزعق من جديد: أسألكم.. من صدمه..؟ نظروه ببلاهة وتركوه والجثة وأوراقه وقلمه.

اقترب من بركة الدم، حام حول الجثة، علق نثار الدم ببنطلونه.. تقزز.. ابتعد.. تطلع حوله.. صار وحده والجثة.

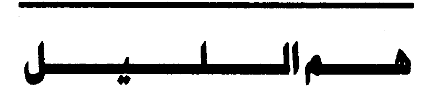
ما العمل..؟

تساءل وهو يرنو إلى أوراقه التى لم يسودها المداد، وبينما هو كذلك انبسطت أساريره وبوادر بسمة على شفتيه.. أمسك بالقلم، وبسرعة حرك سنه فوق سطور الورقة البيضاء.

سين.. جيم، سين.. جيم.

واستمر سن القلم يجرى ويجرى، ثم.. انتهت أقوالهم وأقفل المحضر فى سعته ووقع الشاهدان.. الشاهد الأول، الشاهد الثانى.

وكتب أول اسمين خطرا بباله، ووقع تحتهما، ثم كركع ضاحكًا وهو يدس القلم فى جيبه، ثم تأبط أوراقه وأعطى الجثة ظهره، وتواثب خطوه مبتعدًا.


هم الليل

هـــم الليـــــــل

ظللت أراوغ لحظة استيقاظي لبضع ساعات، لأنعم بدفء الفراش الذى يدفع عنى قرصة برودة الصباح.. أغمض عينى وأباعد بين فكى وأدس كفىّ بين ساقى وأنكمش، وأطرد من رأسى أفكارًا تراودها، علنى أنجذب ثانية إلى جُب النوم اللذيذ، وقبل أن يلفنى فى سواد عباءته ينطلق رنين الهاتف معربدًا فى فضاء الغرفة إلى أن وجد طريقه إلى أذنى.. دسست وجهى تحت الوسادة، ضغطتها فوق أذنى، وسؤال يترى فى رأسى: من يكون هذا السخيف الذى يطلبنى فى هذ الوقت المبكر من يوم أجازتى..؟

راودتنى نفسى أن أتركه يرن إلى أن يدركه اليأس فينصرف عن غيه ولو لساعة زمن، لكن هيهات، فاضطررت أن أنُض عنى الغطاء، ثم وقفت أمامه للحظات حتى أسيطر على زمام غضبى قبل أن أرفع السماعة من مكانها إلى أذنى..

ـ ألو.

كان صوتى ممتزجًا بكسل النوم والتذمر فى آن.

- هل أيقظتك من النوم..؟

(سؤال سخيف.. بايخ، لأنك تعرف إجابته)

- معلهش.. هل تستطيع أن تجيئنى اليوم.. أريدك فى أمر مهم.

(آآه.. يبدو أنه قد عرف أن إيراد الأرض وصلنى من البلد وقرر أن يقترض منى مبلغًا آخر.. لا.. لن يحدث ولو رأى حلمة أذنه)

سألته: ألا يمكن تأجيل ذلك إلى الغد..؟

(أنا أعلم أن ظروفه الصحية تحول دون مجيئه إلىَّ، ولا رغبة لدى للذهاب إليه اليوم).

قال: بطريقة قاطعة: لأ.

ركبتنى الوساوس، فسألته منزعجًا عن الأولاد والزوجة، قال بنفس بروده المعهود: بخير.. بس ضرورى من حضورك.

سألته ملحًا: إذن ما الموضوع الذى لا يحتمل التأجيل..؟

أجاب قائلا: مثل هذه المواضيع لا تقال فى الهاتف.

رحت أضرب أخماسًا فى أسداس، أخمن وأفترض، حتى اقتنعت تمامًا أنه سوف يطلب منى مبلغًا كقرض، فقررت أن أعتذر ، خاصة وأنه لم يسدد ما اقترضه منى منذ سنوات، بل لم يكلف نفسه مجرد الاعتذار عن ذلك.

●●●

في المساء كنت أخطو نحو داره البعيدة، وقد عقدت العزم على تنحية الجانب الانسانى؛ الذى يقلب قراراتى المشابهة رأسًا على عقب؛ مهما كانت الأسباب التى سوف يسوقها إلى فلن أسمع له.

- سلام عليكم..؟

- أهلاا وسهلاا.. لماذا تأخرت هكذا..؟ انشغلت عليك.

- ....

- تعرف إنك أوحشتنى جدًا..؟

(آآه.. سيبدأ فى مناوراته.. أنا أفهمه جيدًا)

- لكن.. ما هو الأمر الذى تريدنى فيه ولا يحتمل التأجيل..؟

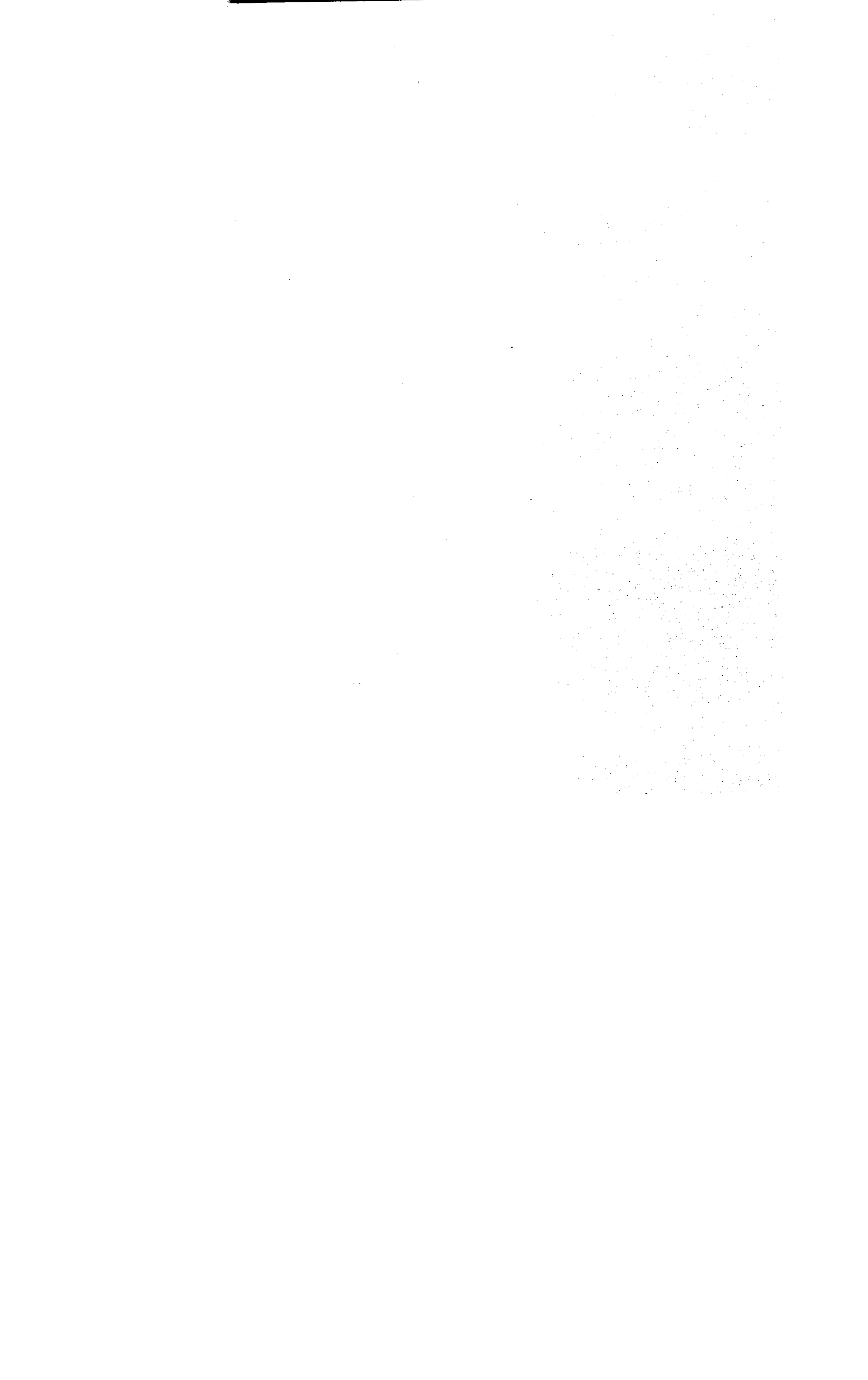
شلته لهجتى لثوان، دس يده فى جيبه، ثم أخرجها قابضة على رزمة من النقود الورقية، مدها نحوى قائلاً:

المبلغ القديم الذى اقترضته منك، معلهش.. اتأخرت عليك.. الظروف كانت صعبة.. أرجوك أن تعذرنى.

شلتنى المفاجأة، أحسست وكأنه دلق علىَّ سيلاً من الماء البارد.. تداخلت فى بعضى.. انكمشت.. تضاءلت..

إبـــــــــــاء

بيننا الوطن -



إبـــاء

آآآه... إمـ مـ مـ. آآآ.

«أنينك يوجعنى يا أمى، يمزقنى.. يسحقنى.. لو تتحملين وتكتمينه داخلك لدقائق لأرحتينى لساعات، لكن أنى لك هذا وقد أكل المرض كل قواك.؟»

آآآى.. آآآ.. يا فـ..ـه..مى.

أيوه يا أمى.

أهرول إليها والعرق يشر من كل مسامى، والخور يعترى جسدى والوهن.. أنظر إلى وجهها فتطالعنى عظامه، وخرزتين لامعتين استبدلتهما بعينى المها اللتين كانتا لها قبل أن يرحل الزوج ويداهمها المرض.. ماذا أفعل ياربى وليس بيدى شيئ..؟

آخذها إلى حضنى.. يااه، صارت هيكلاً، شبحًا.. أكلها المرض، أكل الجسد الرجراج، ومحا وردية البشرة والبسمة من بين الشفتين، فلماذا استسلمت له وتركته يفعل بك ذلك..؟!

آآآه.. إمـ مـ مـ.

ألف سـلامـة لك يـا أمى.. شـدى حـيلك.. أنا أحـتـاجك يا أمى بجانبى.. لا تتركينى وحدى.. أرجوك يا أمى.

تُغمض عينيها.. تغفو لثوان.. أسند رأسها.. أضعها فوق الوسادة «.. مـات رجلها - أبى - أيام صبـاى الأولى، لم يكن يملك غير كده، توسده ورحل.»

قـالت أمى تحكى لى: كان عـفـيًا، مـتـين البنيـة، لكنه لم يكن له صبـر على الدراسـة، فهـجـرها إلى العمل ولم يظفـر منهـا بشـىء.. اعتمد على قوته فى سوق العمل، فعمل حمالاً فى الأسواق وعتالاً فى الموانىء، ولما تقـدم لأبى طالبًا يدى رفـضـه، لكنى أحـببـتـه لأنه أحبنى يا فهمى، وعشنا حياتنا بطولها وعرضها، أبدًا لم يغضبنى، كان يجـيئونى آخـر النهار حـامـلاً كيس الفـاكهـة بشـمـاله وبيمـينه يعطينى ما كان يكسبه فى نهاره، ولما عرف بحملى لم تسعه الدنيا.. كل يوم كان يأتينى بشىء.. ملابس الوليد، كيس مغات، علبـة سمن، لفة لحم، فـرخة شـمورتى، حتى إبر الكالسيوم، وذات يوم قـال لى والفرحة تتقـافز فى عينيه: لو جاء ولد سـأسميـه فهمى، على اسم أبى.. كـان أمله أن يعلمنى يا أم فـهـمى، ولذلك فـسوف أعلم ولدى لأحقق فيه أمله ، لن أبخل عليه بشىء..

لكنه مـات يا فهمى.. انسـحب فجـأة.. كـان نائمًا لما جئته بكوب الشـاى الذى يشربه بعد العشاء.. ناديته فلم يجبنى.. كانت العينان مرشوقتين فى سقف الحجرة، صرخت ملتاعة: يالهوى.

سقط قلبى رعبًا.. دوت صرختى فتجاوزت الحواجز.. تلقفتها آذان الجيران، فجاءوا مهرولين.

توقف القلب فانسلت الروح بعيدًا عن الجسد فى هدوء، وتمدد اليتم فى قلبى.. لم يكن لى من عزاء إلا فيك.

«شدى حيلك يا أمى.. يجب أن تشدى حيلك، وإلا فمن يكون عزائى بعدك..؟

يا فـ هـ مى... ماء يا فـ .. إسقنى يا بنى.

«بالأمس جاء الطبيب.. انتقل قرصه المعدنى بين ضلوع صدرها وعظام الظهر.. نقرت أصابعه فوق عظام الصدر، ثم سود بياض الورقة الصغيرة بسن قلمه.. قال آمرًا: إعطها الأدوية بانتظام، وانصرف.

جريت إلى المطبخ وجئت بكوب الماء.. بللت شفتيها.

بالهناء والشفاء يا أمى.. شدى حيلك.

قالت وعيناها تتجهان إلى السماء: يارب.

مات أبوك يا فهمى ووجدتنى ملتزمة بأن أحقق فيك أمنيته.. لكن كيف..؟ لم يكن أمامى إلا خيار واحد، أشتغل.. واشتغلت، وهان علىّ كل شىء، وأنا أراك تذهب إلى مدرستك وتجىء.

آآآآه.. إمـ مـ مـ ..إاااا..

سألته وأنا أتناول منه الورقة عن حالتها فقال:

الأمل فى الله.. المهم الانتظام فى إعطائها الأدوية.

أدوية..!؟ كيف أتصرف..؟ لمن أذهب..؟ محمد إبراهيم.. أحمد عواض.. على حسين.. عبد الفتاح أبو يحيى.. نعم.. نعم.. عبد الفتاح أبو يحيى.زميل الصبا.

●●●

على عجل أرتديت ملابسى، وطوحت حقيبة كتبى وراء ظهرى، أجرى إلى الدرج.. صوت أمى يلاحقنى: لسه بدرى يا فهمى..

أقف أمام بيتهم المواجه لبيتنا وأزعق باسمه: يا عبد الفتاااااح.

يجتاز صوت أمه الجدر ليصب فى أذنى: أيوه يا فهمى، أهو نازل.

ذاكرنا دروسنا سويًا، ولعبنا سويًا، واختلفنا كثيرًا، لكننا أبدًا لم نفترق حتى اجتزنا أعتاب الصبا.

- تعرف يا فهمى لولا أبى لانقطعت عن المدرسة.

- ماذا..؟!!!

- لا تنزعج هكذا، فإننى أذاكر - كما ترى - وأنجح فى آخر العام.

- لكن دون رغبتك.

- نعم، لأننى غير مقتنع بالشهادة.. ما قيمتها فى النهاية.. كم سأتقاضى من الوظيفة..؟

- ليست مسألة راتب، ولا كم ستأخذ، المهم ماذا سيكون هنا فى رأسك.. المهم أن تتعلم.. تتثقف.. تبنى شخصيتك.

- ثم ماذا..؟

- لا أفهم.

- تعلمت وتثقفت، وعرفت كيف أفكر، وأزن الأمور و... و.. ثم ماذا.

- ....

- أنا أقول لك.. بعد التخرج انتظر وانتظر بدون طائل، حتى أتخطى سن الثلاثين، ويفوتنى اكتساب أية خبرة عملية سواء فى الوظيفة أو فى سوق الأعمال الحرة.

قاطعته متسائلاً: وماذا ترى مستقبلك لو انقطعت عن الدراسة.

قال: أنزل السوق.. أكتسب خبرة فى أى مجال.. الملابس الجاهزة، قطع غيار السيارات، أدخل مجال العقارات.. لعب أطفال، مواد غذائية.. السوق مفتوح الآن يا صاحبى، وإللى معه الولد - أقصد المال يقش.. أليس هذا أفضل من الوظيفة والروتين وأتربة المكاتب، والانتظار شهر كامل لبضعة جنيهات لا تسد الرمق..؟!

أحسست أنه قد استقر على قراره ولن يرجع عنه فانسحبت من مناقشته، وذات يوم وبينما نحن فى طريقنا إلى المدرسة فوجئت به يخبرنى قائلا: خلاص يا فهمى.. لن أكمل دراستى.

سألته مستنكرًا: ماذا..؟!

قال فى هدوء: اهتديت إلى فكرة يعفينى تنفيذها من مواصلة المشوار.

- لا أفهم.

- سأدخل الامتحان ولن أجيب على الأسئلة.

- أنت أكيد مجنون.

●●●

ركبت المترو، جلست بجوار أحد النوافذ، محاولاً الهروب من أفكارى.. إلى أين..؟

صوت أمى يلاحقنى لائمًا: تستدين من صاحبك..؟ لم.. لماذا ذهبت إلى المدرسة قبل أن تتناول إفطارك..؟ لماذا لم تنتظر حتى أعطيك مصروفك.. إياك أن تكررها ثانية.

ثم وهى تضمنى إلى صدرها.. الدين ذل.. عار يا فهمى.. إياك أن تسأل أحدًا أى شىء ولو كان تافهًا، حتى تظل مرفوع الرأس دومًا يا ولدى.

تتابعت البنايات والشوارع والأشجار، معالم لم أخبرها.. غريبة عنى.. نبهنى جارى قائلاً: المحطة الآتية.

جرجرت الخطو.. سألت عن العنوان.. أشار بيده نحو بناية عالية قائلاً: الدور الثالث، شقة ١٥.

فتح لى الباب، أخذنى بين ذراعيه.. قبلنى، أجلسنى وجلس قبالتى، لم يخلع عينيه عن وجهى.. سألنى فى ود عن حالى وحال أمى. البهو واسع وكأنه لقصر فخم، والثريات تعكس ألوان الطيف.

سألته: شقتك..؟

قال: عمارتى.

ماشاء الله.. لا قوة إلا بالله.. صالون «أوبيسون» رائع، تحيطه أحواض الورود والتحف الثمينة، وعلى الشمال «نيش» عال وترابيزة سفرة «لويس» وكراسى بظهور عالية «رويال»، وعلى اليمين أنتريه «ملاك» ذوق عال رفيع.

سألنى ولم ينتظر جوابًا: تشرب إيه..؟

«تُرى كيف حالها الآن..؟ تركتها على حالة الأمس إن لم تكن أسوأ.. صوت الطبيب ينخر فى أذنى: المهم الانتظام فى إعطائها الأدوية. من أين لى ثمنه وقد أخذت كل ما كان معى..؟»

– هاه يا ابو الأفهام.. ما هى أخبارك.. أعرف أنك تخرجت، لكن أين تعمل..؟

– محاسب فى مؤ

قاطعنى متسائلا: يعنى موظف..؟

سألته: وأنت..؟

قال وقد رجع برأسه إلى الوراء: لاااا.. صاحبك شرخ.

ـ نعم.. شرخ..؟!!

استدرك قائلا: لا تؤاخذنى يا صاحبى، إنها لغة السوق، أو قل لغة العصر، عمومًا أنا أعمل الآن فى المقاولات وفى العقارات. وعندى مكتب استيراد وتصدير، وحاليًا حصلت على توكيل بافتتاح سلسلة مطاعم.

(لو كنت أعطيتها الدواء من الأمس ربما لتحسن حالها، لكن..)

ـ إيه يا فهمى.. ماذا بك.. أراك تسرح كثيرًا على غير عادتك..؟

(إنها فرصتك الآن.. اشرح له ظروفك.. مرض والدتك والأدوية و.. والموضوع كله كام جنيه تردهم له بعد يومين أو ثلاثة.. لكن ماذا سيقول عنى.. جاءنى بعد هذه السنين الطويلة ليقترض منى..؟)

ـ لا.. إنت غير طبيعى..

صوت أمى يزعق غاضبًا: تستدين من زميلك.. لماذا.. لماذا..؟

الدين عار يافهمى.. ذل.. الدين ذل يا بنى.

قمت واقفًا.. جريت نحو الباب.. فتحته.. هرولت.. نزلت الدرج وصوته يلاحقنى.. انتظر يا فهمى.. انت

ولم تلتقط أذناى باقى الكلمة بعد أن اجتازت قدماى مدخل البناية إلى عرض الطريق الواسع.

صدر للمؤلف

-الهاموش	مجموعة قصصية	مطبوعات الفجر، ١٩٨٥ – نفدت.
-أنا الموقع أدناه	مجموعة قصصية	مركز الثقافة والفنون، ١٩٨٧.
بين النهر والجبل	رواية	الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١.
،خور رحمه	مجموعة قصصية	هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٥.
عينان زرقاوان	مجموعة قصصية	الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٦.
دوامات الشمات	رواية	الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨.
بحر الزين	ثلاثة روايات قصيرة	الكتاب الفنى – نادى القصة ٢٠٠٠.

تحت الطبع

- دوائر الغبار
- ظلال طويلة سوداء رواية
- أيام بعد السد مسرحية بالاشتراك مع محمد الماوردى
- كأنه حدث بالأمس رواية
  كأنه يحدث الآن
- جدار الشمس

م.ق

الفهرس

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org